

افتتاحية

التغيير المطلوب

مدير المجلة

ها هي مجلَّة «الإصلاح» تستقبل عامَها الخامس، وأوطانٌ عربيَّةٌ إسلاميَّةٌ تستفيقُ على وقع أحداث متتابعة متَسارعة كأمواج البَحر المتلاطمَة، وانتفاضات (شبابيَّة)، وثورات شعوب على حكَّامها، رافعة شعار التَّغيير، وقد يُوافق ذلكَ مجرى السُّنن الكونيَّة من النِّهاية الوخيمة والعاقبة السَّيئة للظُّلم والجور والاستبداد، لكن هذا لا يسوِّغ الخروج في هذه الثَّورات العارمة، والمظاهرات الحاشدة؛ لأنَّها ليسَت من أساليب الشَّريعة في المناصحة، ولا من طرائق تَغيير المنكر، ودفع الظُّلم ودَرئه، كما قرَّره العلماء المحقِّقون من أهل السُّنَّة والجماعة.

إنَّ منَ المعلوم قطعًا أنَّ تغيير الأحوال بيد الله تعالى وحدَه، يصرِّف الأمُور وفقَ مشيئته وإرادته، يعزُّ ويذلُّ، ويرفع ويضع، ويؤتي الملك مَن يشاء وينزعُه ممَّن يشاء، لكن الله جعلَ لهذا التَّغيير سنَّةً كونيَّةً، فلا تتحوَّل الأمَّة من حال الضِّيق والضَّنك إلى حال السَّعة والعزِّ والنِّعمة والمَنعة ونحوها، إلَّا إذا أحدث أفرادُها التَّغيير في أنفُسِهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ فليس منَ الحكمَة أن يعيشَ أحدٌ عمرًا طويلاً لا يسأمُ فيه منَ المطالبة باستِبدال حاكم أو تغيير حكومَة، ولا يلتفتُ يومًا إلى نفسه يعاتبُها ويلومُها، ويغيِّر ما بها من سُوء ويطهِّرها ممَّا علق بها من شرور، ويُصلح ما بينَه وبين ربِّه سبحانه.

وقد علَّمنا التَّاريخ أنَّ هذه الثَّورات قَد تحملُ معَها رياح التَّغيير، فأطيحت أنظمة، وأسقطت دول، وقام على أنقاضها دولٌ بإيديولجيَّات وضعيَّة، وفلسفات لائكيَّة، ونُظم علمانيَّة غيَّبت الدِّين تغييبًا؛ إلَّا أنَّها لم تحقِّق للنَّاس ما كانوا يؤمِّلون، وخابت معها الظُّنون.

إنَّ الَّذي دعا إليه الأنبياء والرُّسل ـ عليهم السَّلام ـ وعلى رأسِهم خاتم النَّبيِّين ﷺ، هو التَّغيير النَّافع لكلِّ مجتمَع في أيِّ مكان وفي أيِّ زمان، وهو الاجتماع على أنَّه لا إله إلَّا الله ولا معبودَ بحقٍّ سواه، ونبذ كلِّ أنواع الشِّرك ومظاهره، وأن يكونَ غرسُ التَّوحيد في نفوس أفراد الأمَّة هو القضيَّة الَّتي يقوم عليها النِّظام، وبهذا يكون الإصلاح ويتحقَّق العدل، وأمَّا التَّغيير الَّذي لا يضَع ذلك في حُسبانه، ويجعل أمر التَّوحيد والدِّين هو آخرَ اهتماماته فهُو الخسرانُ بعينه.

وعليه؛ فأيُّ تغيير لا يأخُذُ بزمامه ورثةُ الأنبياءِ ـ يعني العُلماء الرَّبَّانيِّين ـ فهو عُرضة للاضطراب والاختلال، وقد يستَغرب هذا الكلام مَن لم تلتصق ثقافتُه بالوحي أو مَن صار لُقمةً سائغةً لوسائل الإعلام تصقُل ذهنَه وأفكارَه وتصوُّراتِه، وأمَّا مَن لازمَ كتابَ الله وسنَّةَ رسوله ﷺ علم يقينًا أنَّه هو التَّغيير المطلوب.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾



مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.

المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@maktoob.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

في هذا العدد

الافتتاحية: التغيير المطلوب/ مدير المجلة 1

الطليعة: عين على الحدث/التحرير 4

في رحاب القرآن: العلوم الأساسية لطالب القراءات القرآنية

/مهدي دهيم.............................. 6

من مشكاة السنة: رفع العلم وذهابه/توفيق عمروني 9

التوحيد الخالص: ثبوت صفة الوجه لله والرد على النفاة

/عز الدين مارير........................ 13

بحوث ودراسات: حجية السنة

/د. مصطفى بوعقل 18

مسائل منهجية:

احذروا الفتن/ أزهر سنيقرة 23

أثر قواعد المحدثين في تقويم سلوك المؤمن

/الزواوي الملياني 25

تزكية وآداب: في نزول المطر فوائد وعبر

/حسن أيت علجت 32

فتاوى شرعية: أ. د. محمد علي فركوس 37

سير الأعلام: نماذج من همم المعاصرين

/إبراهيم بن حليمة 41

أخبار التراث: مسألة في ضوابط الأخذ بالمباحات لشيخ الإسلام

/عمار تمالت 45

اللغة والأدب: الإرهاب النحوي/أحمد معمر 49

قضايا تربوية: الأطفال في بيت النبوة. الجزء السادس

/فريد عزوق............................ 54

ألفاظ ومفاهيم في الميزان: هل يكون المنتحر بطلا؟

/عمر الحاج مسعود 58

الفوائد والنوادر: التحرير 60

بريد القراء: التحرير................................. 62

تنبيه حول بيت: إذا الشَّعب أراد يومًا الحياة/ التحرير 64

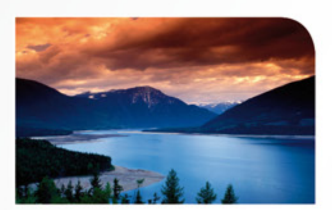
التحرير

كلمة في الأحداث



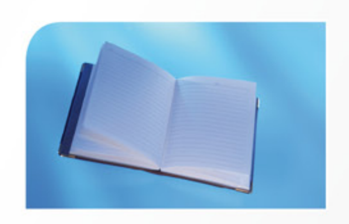
د. مصطفى بوعقل

حجية السنة



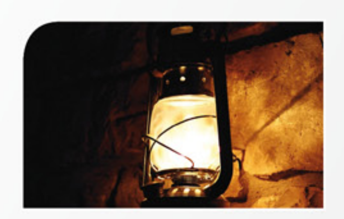
أحمد معمر

الإرهاب النحوي



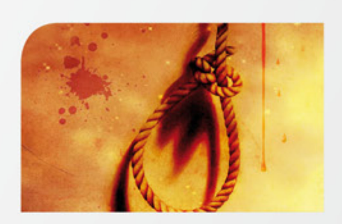
توفيق عمروني

رفع العلم وذهابه



أزهر سنيقرة

احذروا الفتن



عمر الحاج مسعود

هل يكون المنتحر بطلا؟

العدد السابق





قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

الافتتاحية

كلمة في الأحداث

لا يخفـى على أحد أنَّ أوطان أهل الإسلام في هذه الأيَّام تعيش حالاً عصيبًا وجوًّا كئيبًـا، وتمـرُّ بمحنة اشتـدَّت نارها اشتعـالاً ولهيبًا، من خلال موجـات الاحتجاجات المتزايدة، والدَّعوة إلى الاعتصام والمظاهرات في الشَّوارع والسَّاحات العامَّة، وكاد أن يكون هذا المظهر مألوفًا، ومطلب أهله معروفًا، ولكن إلى أيِّ مدى يمكن قبول مثل هذا التَّصعيـد المـؤدِّي إلى سفك الدِّماء ونهب الممتلكات، وسلـب الأرزاق، وترويع الآمنين، وتعريض الشَّباب إلى المخاطر والمجازفات، وإقحامه في معارك لا يكون هو الغانم فيها قطعًـا، فإنَّه كما قيل: «الثَّورات يخطِّط لها العقـلاء ويقوم بها المجانين ويستفيد منها الجبناء»!

ولسنـا ننقم علـى السَّاسة خوضهـم في هذه الأحـداث؛ لأنَّها مرتعهـم الَّذي فيه يسرحـون، ومن علفهـا يجترُّون، ولا على أهل الإعلام تغطيتهم لـمـا يجري؛ لأنَّها مادَّة صناعتهم الَّتي تسيل منها أقلامهم، وتمتلئ بها صحفهم وقنواتهم.

بـل ولا ننقم على أعداء الأمَّة المتربِّصين بها من الكفـرة وأتباعهم تتبُّعهم لما وقع وسيقـع من تقلُّبات وتغـيُّرات في خريطة العالم الإسلامـي؛ فإنَّهم كما قال الله فيهم: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: 118].

ولكن ما يثـير الدَّهشة والاستغراب، ويدخل على النُّفوس الحزن والاكتئاب: عودة وجـوهٍ توسم بـ: «الوجيهة» إلى واجهة الأحـداث وبالوجه المعروفة بـه، والتَّوجُّه الَّذي تؤمـن به وتسير عليه، تُبارك مظاهـر الاحتجاجات والمسيرات، وتؤجِّج فتيل الانفلات والثَّورات، مزكِّيـةً أفعالها وخططها، مضفية عليها ألقاب الفخر والمجد، مانحة إيَّاها أوسمـة الشَّرف وشارات البطولة، دافعةً بهـا إلى المهول والمجهول «ثورة مباركة، دماء زكيَّـة، شعـب عظيم، شبـاب يريد التَّغيـير...» إلى غير ذلـك من الشِّنشنـة الَّتي بها يعرفون، وبلحنها دومًا يترنَّمون.

وليـت العجـب يقف بنا عند هذا الحـدِّ! فإنَّه سرعان ما تـوارد الإنكار على هؤلاء وتـوالى، وارتفـع الحقُّ وتعالى، قام آخرون. ولا ندري بـأيِّ لسانٍ يتكلَّمون وفي أيِّ صفٍّ يقفون. يلتمسون لهم الأعذار، ويبحثون في أرشيف ماضيهم ما يحفظ لهم ماء الوجه، ويـردُّ لهم الاعتبار، فوجدوا ما ظنُّوا أنَّه به يسكتون صوت النَّاقمين والنَّاقدين، فقالوا عنهـم إنَّهم يصرِّحون بأنَّ التَّغيير لا يكون بالمظاهـرات والمسيرات، وحشد الجماهير تحسُّبًـا للمواجهات، وإنَّما يكون بتغيير ما في النُّفوس والعودة بها إلى رحاب التَّديُّن،

وهـذا تعارض وتناقض في القـول والعمل، وقد عُلِم من قواعد الشَّرع الحنيف أنَّ المتأخِّر ينسخ المتقدِّم، فبأيِّ القولين نأخذ؟ وعلى أيِّ منهج نسير؟ فللعقلاء أن يتأمَّلوا ثمَّ يحكموا.

ومن هنات القوم المُعذِرين في المعتذر لهم: أنَّهم دعاة ينظر إليهم وينتظر منهم وقد أُقحموا، وسئلوا فتكلَّموا، ثمَّ هم أبناء الشَّعب وقد استغاث بهم! أفلا يُغاث الملهوف ويُسمع للمظلوم ويؤخذ على يد الظَّالم؟ وهل من المعقول ورجحان الحكمة أن يقفوا ضدَّ التَّيَّار الجارف في محاولة يائسة لإيقافه أو تغيير مساره؟

وجوابًا على ما ذكر، وإبطالاً لما عنه اعتذر، يقال: من الَّذي أقحمكم الميدان، ومنحكم التَّفويض لولا جرأتكم وحرصكم على الظُّهور والبروز؟ تتلهَّفون وراء القنوات للوصول إلى مخاطبة الجماهير، وتحريك عواطف الشَّباب منهم بلغة كلُّها تهييج وتهريج.

ولماذا تكلَّمتم حين سئلتم؟ لمَ لم تثبتوا على نهجكم فتردِّدوا لهم مقولَكم في مثل هذه المظاهرات والمسيرات وحكمكم عليها؟ أو على الأقلِّ إن خفتم أن ينالكم سوءٌ يزيل عنكم لمعان الشُّهرة أن تسكتوا ولو إلى حين؟ فقد وسع السُّكوتَ في النَّوازل والفتن وفي خضمِّ الأحداث المتسارعة قومًا ليسوا بجبناء ولا جهلاء، بل كانوا علماء حلماء، عصمهم العلم وزيَّنهم الحلم من أن يفتئتوا على الأمَّة، ويجرُّوا بأذيال أبنائها إلى حيث يلقون حتفهم وموتهم.

إنَّ على دعاة الحقِّ وكلِّ مَنْ رام عزًّا لهذه الأمَّة المرحومة، ورجا لأبنائها سلامةً وسعادة ورُشْدًا، وفي طليعتهم هؤلاء الشَّباب ـ الَّذي يريد البعض أن يصعد على أكتافهم ليبني قصرًا ولو هدم مصرًا، أو أحرق «مصرَ» ـ أن يتَّقوا الله فيهم، وأن لا يغشُّوهم في النُّصح، وأن يأخذوا بأيديهم إلى شاطئ النَّجاة وبرِّ الأمان بتبصُّر ويقظة وحكمة وتعقُّل يدفع عنهم التَّهوُّر والطَّيش، والارتماء في أحضان المتلاعبين بمصالح الأمَّة وأمنها واستقرارها، فإنَّنا كثيرًا ما نستبطئ النَّصر والتَّمكين، ونعيش وساوسَ وهذيان تؤمِّلنا في الفتح المبين، والله تعالى يحبس عن المُعْرِض عطاءه، ويكشف عن الدَّعيِّ غطاءه، وينصر الحقَّ، ويمتحن الخلق، وينصب صراطًا يعبر عليه النَّاس في العاجلة قبل عبورهم على صراط الآجلة، ويعجِّل لهم عقوبة الدُّنيا قبل خزي الآخرة.

إنَّ على النَّاس أن يعلموا أنَّ سنَّة الله في التَّغيير تقتضي أن يغيِّر النَّاس ما في أنفسهم أوَّلاً، فالله تعالى لا يسلب قومًا نعمةً أنعمها عليهم حتَّى يغيِّروا ما كانوا عليه من الطَّاعة والعمل الصَّالح ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وهذه الآية أفادت أنَّ التَّغيير تغييران:

1. تغيير القلب والعمل، وهو على العبد بتوفيق الله تعالى له ولطفه به، ويشمل كلَّ شيء، بدءًا من التَّغيير في العقيدة إلى إماطة الأذى عن الطَّريق، مرورًا بإصلاح القلوب الَّتي صدأت، والعبادات الَّتي انحرفت، والأخلاق الَّتي سادت، والمناهج الَّتي كسدت.

2. تغيير الواقع والحال، وهو على الرَّبِّ سبحانه، لا بقوَّتنا وبأسنا وتدبيرنا.

والتَّغييران متتاليان، لا يتحقَّق الثَّاني إلاَّ بتحقيق الأوَّل شرطًا، يفسِّره قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، ومن عَكَسَ يناله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165].

فالتَّغيير الَّذي نريده هو التَّغيير الَّذي يمتدُّ إلى البواطن والعقليَّات، لا التَّغيير الَّذي يكتفي بالظَّواهر والشَّكليَّات، تغييرٌ تستقيم فيه النُّفوس على طاعة مولاها وخالقها، وتصلح ما بينها وبين الله تعالى لإقامة التَّوحيد وتحكيم الشَّرع، لينشأ عندنا جيلٌ متلائم الأذواق، متَّحد المشارب، مضبوط النَّزعات، صحيح النَّظرة إلى الحياة.

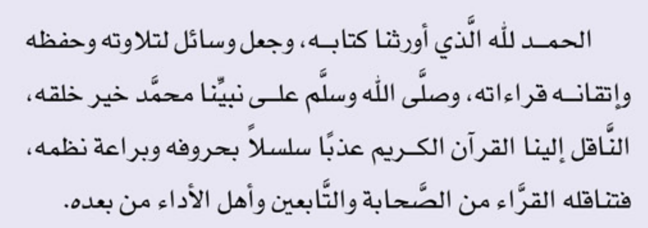
إنَّ السُّنن الرَّبَّانيَّة في الأمم والأفراد لا تتخلَّف، وقد قضت أنَّه لا بقاء ولا تمكين إلاَّ للصَّالح، عرف هذا من عرفه، وجهله من جهله ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)﴾ [الأنبياء].

نسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يردَّ هذه الأمَّة إلى الإسلام ردًّا جميلاً وأن يهدينا صراطًا مستقيمًا، وأن يهيِّئ لها أمر رشد يعزُّ فيه وليه ويذلُّ فيه عدوُّه، وأن يجعل يومها خيرًا من أمسها، وغدها أفضل من يومها؛ إنَّه على كلِّ شيء قدير، وبالإجابة جدير.

مهدي دهيم

■ ماجستير في القراءات القرآنيَّة ومجاز في القراءات العشر

العلوم الأساسية لطالب القراءات القرآنية



اللُّغة العربيَّة (نموذجًا)



الحمـد لله الَّذي أورثنا كتابـه، وجعل وسائل لتلاوته وحفظه وإتقانـه قراءاته، وصلَّى الله وسلَّم علـى نبيِّنا محمَّد خير خلقه، النَّاقل إلينا القرآن الكـريم عذبًا سلسلاً بحروفه وبراعة نظمه، فتناقله القرَّاء من الصَّحابة والتَّابعين وأهل الأداء من بعده.

أمَّـا بعـد؛ فلقـد أولى السَّلـف الصَّالح عنايـة فائقة لحفظ القرآن الكريم وتلاوته وتعليمه، وكان الواحد منهم يبتدئ بكتاب الله تعـالى العزيز فيتقنه حفظًا ويجتهد في إتقان تفسيره وسائر علومه؛ إذ أنَّه أصل العلوم وأمُّها وأهمُّها[1] .

قـال الإمام المقرئ أبو عمرو الداني رَحِمَهُ اللهُ (ت444هـ) واصفًا الأستـاذ المقـرئ بقولـه: «... ويستحـبُّ للأستـاذ إذا فـرغ من الإقـراء أن يُذاكر أصحابه بما رواه وحفظه من الحديث والفقه، والتَّفسـير، والمعاني، والقـراءات، والوجوه، والإعـراب...، وغير ذلـك من أنواع العلـم وفنونه، ويحثُّهم على طلب ذلـك وتَرْوِيَتِه، ويرغِّبهم في تعلُّمه وروايته»[2].

ومن العلوم الأساسيَّة الَّتي يتحتَّم على القارئ معرفتها وهي متعلِّقة بكتاب الله تعالى علمُ اللُّغة العربيَّة.

(1) انظر: «تذكرة السَّامع والمتكلِّم في أدب العالم والمتعلِّم» لابن جماعة (112 ـ 113) بتصرُّف.

(2) انظر: «شرح قصيدة أبي مزاحم الخاقاني» للدَّاني (2/182 ـ 183).

فقد لقَّبَ ابن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ (ت324هـ) عند ذكره منازل أهل القرآن في نقله وأدائه حامل القرآن المعرب العالم بوجوه الإعراب والقراءات، العارف باللُّغات ومعاني الكلمات، بالإمام الَّذي يفزع إليه حفَّاظ القرآن»[3].

وقـال الإمـام الحافـظ ابـن الجـزري رَحِمَهُ اللهُ (ت833هـ): «والَّـذي يلزم المقـرئ أن يتخلَّق به مـن العلوم قبـل أن ينصب نفسـه للإشغـال أن يعلمَ مـن الفقه ما يصلح بـه أمر دينه...، وأن يُحَصِّـلَ جانبًا من النَّحو والصَّرف، بحيث إنَّه يوجِّه ما يقع له من القراءات، وهذان من أهمِّ ما يحتاج إليه، وإلاَّ يُخطئ في كثـير ممَّا يقع في وقف حمزة، والإمالـة، ونحو ذلك من الوقف والابتداء وغيره»[4].

(3) انظر: «السَّبعة» لابن مجاهد (45 ـ 46)، ونقله الدَّاني في «شرح القصيدة» (2/27).

(4) انظر: «منجد المقرئين» (50 ـ 51).

الحاجة إلى اللُّغة العربيَّة:

إنَّ اللُّغــة والنَّحو لمن أجلِّ الأمـور الَّتي يجب أن يحرص عليها قـارئ القـرآن الكـريم؛ إذ أنَّ القرآن نـزل بلسـان عربيٍّ مبين، والعـرب لهم سَـنن في كلامهم وبيانهـم، فلغتهم أفصـح اللُّغات وأوسعهـا وأحفلهـا بالمعاني، واللُّغـة العربيَّة لغة معرَبـة أي فيها علامـات إعـراب، ومـن ثـمَّ كان لازمًا علـى المتكلِّم بهـا معرفة علامات الإعراب حتَّى لا يقع في اللَّحن[5] المعيب الجليِّ، وإذا كان اللَّحن معيبًا في كلام العرب، فكيف باللَّحن في كتاب الله تعالى؟! ولهـذا كان لزامًا على قارئ القرآن أن يتعلَّم من النَّحو ما يصلح لسانه[6].

وقـد وردت آثار عديدة في الحثِّ علـى تعلُّمها والحرص على طلبهـا، فمن ذلك ما جاء عن عمـر رضي الله عنه في كتابه لأبي موسى الأشعـري رضي الله عنه قال: «أمَّـا بعد، فتفقَّهـوا في السُّنَّة وتفقَّهوا في العربيَّة»[7].

وقـال الإمـام أبـو الحسن علي بـن عبـد الغنـيِّ الحُصْري (ت 488هـ)[8]:

وأحسِنْ كلام العُرْب إن كنت مقـرئًا
وإلاَّ فـتخطـي حين تقرأ أو تُقـري

لـقـد يـدَّعـي عـلـم الـقـراءة مـعـشـر
وباعُـهُم فـي النَّـحو أقصـر من شبر

فـإن قـيـل : مــا إعــراب هـذا ووزنُـه
رأيـت طـويل البـاع يقصـر عن فِـتـر

وقال الحافظ الدَّاني - في صفات من يُؤخذ عنهم العلم -[9]:

وفَـهـم الـلـغــاتِ والإعـرابــا
وعَلِـم الـخـطـأَ والصَّــوابـــا

وقد نوَّه الإمام مكِّي بن طالب القيسي رحمه الله (ت437هـ) بذلك فقـال: «... ومـن كمال حـال طالب القـرآن أن يعـرف الإعراب وغريـب القرآن فذلـك ممَّا يسهِّـل عليه معرفة معنـى ما يقرأ، ويزيل عنه الشَّكَّ في إعراب ما يتلو»[10].

قال العلامــة الأندرابي رحمه الله (ت470هــ): «... فواجب على قرَّاء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في طلب العربيَّة وتعلُّم الإعراب»[11].

فالتَّوسُّـع في علم العربيَّـة يوصل إلى حقيقـة معرفة النُّطق بالحـرف على حـدِّ كلام العرب، وبـه يوصَـل إلى معرفة الوقف والابتداء، وبه يُعرف وجه قراءة كلِّ قارئ[12].

ويتمكَّن المقـرئ بذلك من بيان معنى الآية الَّتي قرئت بأكثر من وجه وتفسيرها، والدِّفاع عن القراءات القرآنيَّة بالكشف عن وجههـا، وبيـان صحَّتها وسلامتها، والرَّدِّ على مـن تأوَّل من أهل القبلـة، فطعن في القراءة لمخالفتها القياس والنَّظر عنده، والرَّدِّ كذلك علـى من ألحد ممَّن قصد التَّشكيـك في القراءات ليصل بذلك إلى الطَّعن في القرآن.

فحـريٌّ بطالب القراءات أن يمكِّـن نفسه بدراسة فنون اللُّغة العربيَّـة، فيدرس نظمًا أو مؤلَّفًـا في كلِّ فـنٍّ، كـ«الآجروميَّة» في النَّحـو، و«لاميَّـة الأفعـال» في الصَّـرف و«الجوهـر المكنـون» في البلاغـة؛ ليظفـر بحقيقة إعـراب الحـروف، وتراكيب الجمل والألفاظ، ويوظِّف ذلك في خدمـة القراءات القرآنيَّة، كما له أن ينهل من كتـب النَّحو واللُّغة كـ«الكتاب» لسيبويه، و«مغني اللَّبيب» لابن هشام، وكتب معاني القرآن كـ«معاني القرآن» للفرَّاء، وكتب إعرابـه كـ«إعراب القـرآن» لأبي جعفر النَّحَّـاس، وكتب التَّفسير كـ«تفسـير» الطَّـبري، والسَّمـين الحلبي وغيرهمـا، ففيها جملة وافرة من توجيه القراءات والاحتجاج لها، يَتبلَّغ بها اللُّغويُّون إلى الاستشهاد على بعض قواعدهم، أو إلى ترجيح وجه لغويٍّ على آخر، ويستعين بها المفسِّرون على بيان المعاني الَّتي تتضمَّنها الآيات[13].

حتَّـى إنَّ النَّاظر في كتب المعاجـم اللُّغويَّة لا يحرم من توجيه وبيـان للقـراءات القرآنيَّـة كمعجم «مفـردات ألفـاظ القرآن» للأصفهاني و«لسان العـرب» لابن منظور، ممَّا يدلُّ على اهتمام أهل اللُّغة والتَّفسير بالنَّصِّ القرآني المنزَّل على النَّبيِّ الأمِّيِّ صلى الله عليه وسلم.

(5) المراد باللَّحن هنا الخطأ.
(6) انظر: «تقويم اللِّسان بتلاوة القرآن» لإبراهيم الجرمي (9) بتصرُّف.
(7) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» (2228).
(8) انظر: «شرح القصيدة الحصرية» لابن عظيمة الإشبيلي (26/2).
(9) انظر: «الأرجوزة المنبِّهة» للإمام أبي عمرو الدَّاني (171).
(10) انظر: «الرِّعاية» لمكِّي ابن أبي طالب القيسي (87).
(11) انظر: «الإيضاح في القراءات» للأندرابي (773)، رسالة علميَّة.
(12) من كلام الإمام ابن الباذش نقله عنه السَّنهوري في «الجامع المفيد» (115) بتصرُّف.
(13) انظر: «التَّوجيه البلاغي» للقراءات القرآنيَّة (24) بتصرُّف.

أمثلة ونماذج:

ثـمَّ إنَّ للتَّغاير الإعرابي والصَّـرفي والإعجاز البياني أثرًا في توجيه القراءة القرآنيَّة، فمن ذلك:

. الاختـلاف في تغيُّر الحـركات الإعرابيَّة سـواء في الأسماء أو الأفعـال؛ إذ أنَّهـا تنبئ عـن المعاني، فمثال ذلـك ممَّا وقع في الأسمـاء: لفـظ ﴿قِيَمًا﴾ [النِّسَاءِ : 5] بسورة النِّســاء: فقد تغايرت القــراءة فيها بين حذف الألف وإثباته، فجعـل الفرَّاء القراءتين مصدرين بمعنى واحد[14]، والمعنــى: ولا تؤتوا أموالكم الَّتي تقوم بهــا أمورُكم قيامًــا وقيَمًا[15]، وذهـب النَّحَّـاس إلى أنَّ ﴿قِيَمًا﴾ مصـدر قام، بمعنــى جعل الأمـوال قِيَامًا لأمر عبــاده، و(قِيَمًا) جمع قيمة، أي جعل الأموال قيمة لأمتعتكم[16].

.ومن أوجه التَّغاير الاختلافُ في بنية الكلمة بتغاير الحركات، أو الزِّيادة والنُّقصان، أو الإبدال، أو التَّخفيف والتَّشديد، فتختلف بذلك صيغة الكلمة من قراءة إلى أخرى؛ ومن ثمَّ يتغاير معناها، مثال ذلك:

مــا ورد في لفـظ ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ [التَّوۡبَة : 90] بالتَّوبـة: فقـد تغايرت القراءة فيها بـين التَّشديد والتَّخفيـف[17]، جاء في «اللِّســان»: «عـذَّر الرَّجل فهـو معـذِّرٌ إذا اعتذر ولم يـأت بعُذر، وأعذر: ثبت له عذر، والمعنى: هم الَّذين لا عذر لهم ولكن يتكلَّفون عذرًا، وعلى قراءة التَّخفيف: هم الَّذين لهم عذر»[18].

.يعتـبر اختلاف القراءات في الكلمـة القرآنيَّة؛ حيث تختلف دلالاتهــا المعنويَّة والبيانيَّة والبلاغيَّة روضة من المعاني والدَّلالات الَّتـي تكمِّـل معنى القــراءة الأخـرى، أو تفصِّل مــا ورد فيها من إجمــال، ومثــال ذلـك: ﴿نُنشِزُهَا﴾ [البَقَرَة : 259] بالبقـرة: الَّتي تغايـرت قراءتها بين الرَّاء والزَّاي[19]، فمن قـرأ بالرَّاء فمعناها نحييهــا؛ لأنَّ النَّشر هو الإحياء، قال الزَّجـاج: «من قرأ ننشرها فهو مـن أنشـر اللّه الموتى، أي: بعثهـم» فأفادت القــراءة إحياء العظام وتسويتها بعد البِلى، وذلك بقدرة اللّه.

بيــد أنَّ هــذا الإجمال الَّذي تعـبِّر عنه هذه القــراءة تُفَصِّله وتبيِّن مراحله القــراءة الأخـرى ﴿نُنشِزُهَا﴾، واشتقاق القراءة مــن النَّشْزِ، وهو في اللُّغة: المرتفع من الأرض، والمعنى:وانظر إلى العظام كيف نرفعهــا من أماكنها من الأرض إلى جسم صاحبها للإحياء[20].

معـرفـة الـلُّـغـة الـعـربـيَّـة وعـلـومـهـا سـبـب لـبـيـان وجـه قــراءة كــلِّ قــارئ، والـدِّفــاع عـن الـقــراءات الـقــرآنـيَّـة، وردِّ شـبـه الـمـتـأوِّلـين والـمـسـتـشـرقـين

أهمُّ النَّتائج:

. اللُّغــة والإعراب من أهمِّ العلوم اللاَّزمة لمن تصدَّر للقراءة والإقراء.

. معرفــة اللُّغــة العربيَّــة وعلومهــا سـبــب لبيان وجــه قراءة كلِّ قــارئ، والدِّفــاع عن القــراءات القرآنيَّة، وردِّ شبــه المتأوِّلين والمستشرقين.

. الأنفــع لطالب القــراءات القرآنيَّــة الاستعانةُ بكتــب اللُّغة والمعاجــم، والتَّفسـير، وكتب معــاني القرآن وإعرابــه؛ لينظر في دلالات الألفاظ والمعاني فيوجِّه القراءات القرآنيَّة ويحتجَّ لها.

.للقــراءة القرآنيَّــة أثر واضح في معرفــة القواعد الصَّرفيَّة واللُّغويَّة.

. تعــدُّد أوجه القراءة في الكلمــة القرآنيَّة يضفي عليها روضةً من المعاني والدَّلالات الجديدة.

وفي الختــام؛ أحمــد اللّه تعــالى وأشكره، وأُثنــي عليه بما هو أهلــه؛ أن وفَّقني وأعانني على جمع هذه الوريقــات، فله الحمد والشُّكـر أوَّلاً وآخرًا، وصلَّــى اللّه وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(14) انظر: «معاني القرآن» للفرَّاء (256/1).
(15) انظر: «المختار في معاني قراءات أهل الأمصار» (190/1).
(16) انظر: «إعراب القرآن» للنَّحَّاس (436/1).
(17) قرأ الجمهور بالتَّثقيل، وقرأ الإمام يعقوب بالتَّخفيف [مع إسكان العين]، انظر: «النَّشر» (280/2).
(18) انظر: «لسان العرب» (مادَّة عذر).
(19) قرأ ابن عامر والكوفيُّون بالزَّاي، وقرأ الباقون بالرَّاء، انظر: «النَّشر» (231/2).
(20) انظر: «الإعجاز البياني في ضوء القراءات القرآنيَّة المتواترة» للدُّكتور أحمد الخرَّاط (48-53) (بتصرُّف).

رفع العلم وذهابه



توفيق عمروني

عن أَنَس رضي الله عنه أنَّه قَالَ: لأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ لاَ يُحَدِّثُكُمْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرِي: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ:

«إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ وَيَثْبُتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا».

أخرجه البخاري (80، 81، 5231، 5577، 6808)، ومسلم (2671)، والترمذي (2205)، وابن ماجه (4045)، وأحمد (11944، 12527، 12806، 13095)، وأبو يعلى (3085).

ومثله قول النَّبيِّ ﷺ:

«إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لأَيَّامًا، يَنْزِلُ فِيهَا الجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا العِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الهَرْجُ» وَالهَرْجُ: القَتْلُ[1].

وقد تنوَّعت عبارة «رفع العلم» في هذا الحديث وغيره، فهنا جاءت بلفظ: «**يرفع العلم**»، و«**يقلُّ العلم**»، وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه «**يُقبض العلم**»[2]، وفي حديث أبي الدَّرداء «**يُختَلَسُ العلم**». كما سيأتي.، وفي حديث أبي هريرة «**وينقصُ العلم**»[3]، وفي المقابل «**ويَثبُت الجهل**»، وفي لفظ: «**يَنزل الجهل**»، و«**يكثر الجهل**»، و«**يَظهر الجهل**».

(1) رواه البخاري (7062) من حديث ابن مسعود وأبي موسى رضي الله عنهما.
(2) رواه البخاري (85).
(3) «صحيح مسلم» (157) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فرَفْع العلم وقلَّته ونقصُه وظهور الجهل وتفشِّيه وكثرته وثُبوته علامةٌ من علامات قُرب السَّاعة وشَرطٌ من أَشْرَاطها، ولا ريبَ أنَّ المراد بالعلم في هذا الموطن العلم بالوحي أي بالكتاب والسُّنَّة، والعلم بأحكام الدِّين أصوله وفروعه، وهو العلم الَّذي يورث خشيةَ اللَّه لا غير؛ لذلك لـمَّا يرفع هذا العلم يخلفُه الجهل الَّذي يزيل خشيةَ اللَّه من القلوب، ويجرُّ النَّاس إلى أنواع من الذُّنوب العظيمة والجَرائم الغليظة كالقتل والزِّنا وشُرب الخمور ونحوها، وقد يستشكل بعض النَّاس معنى هذا الحديث مع قوله ﷺ: «..**وَإِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَكْثُرَ التُّجَّارُ، وَيَظْهَرَ القَلَمُ**»[4]؛ والحقيقة أنَّه لا تعارض بينهما؛ لأنَّ معنى هذا الحديث أن تنتشر وسائل العلم من الكتابة والقراءة ويتمكَّن النَّاس منها تمكُّنًا عظيمًا، ويفشو بينهم القلم وهذا لا يعني أبدًا فشُوَّ العلم الصَّحيح النَّافع، كما هو ظاهرٌ اليوم من تنوُّع هذه الوسائل من أقلام من مختلف الأشكال والأنواع والألوان وصولا إلى الأقلام الإلكترونية وأجهزة الإعلام الآلي والطباعة ونحوها.

قال ابنُ عبد البر في «التَّمهيد» (17/297): «أمَّا قولُه في هذا الحديث «**وَفُشُوَّ القَلَم**» فَإِنَّهُ أرادَ ظُهور الكِتاب، وكثرةَ الكُتَّاب».

(4) أخرجه الطيالسي (1267)، وأحمد (39/519)، والنَّسائي (4456). وعنده «العلم» بدل «القلم» وهو تصحيف.. وابن البختري (40، 467)؛ وانظر «الصَّحيحة» (647، 2767).

فهذا الخبر يمكن عدُّه من جملة دلائل النُّبوَّة، فالكمُّ الهائل الَّذي تدفع به المطابع يوميًّا من الصُّحف والكتب والمجَلات ناهيك عن النُّسخ الإلكترونيَّة يُنبئ عن كثرة الكتَّاب وكثرة المكتوب، ممَّا يوحي بانحسار الأمِّيَّة وانتشار القراءة والكتابة بين النَّاس، وهو معنى «**ظهور القلم وفشوُّه**»؛ لكن هذا لا يَلزم منه ظهور العلم وفشوَّه؛ لأنَّ هذا المكتوب والمقروء غالبه لا يحمل علمًا نافعًا، وجلُّه لا يحوي في مادته أثرًا من آثار الرِّسالة النَّبويَّة.

■ ■ ■

وقد جعل اللهُ تعالى لرفع هذا العلم بينَ النَّاس وإحلال الجهل محلَّه أسبابًا وطرقًا، قال ابنُ العربي: «وأمَّا ذهابُ العلم، قال المشيَخَةُ: فيكونُ بوجُوه، إمَّا بمحوه من القلوب، وقد كانَ في الَّذين من قبلنا، ثمَّ عصمَ اللهُ هذه الأمَّة، فذهابُ العلم منها بمَوت العُلماء.

وقد قَال جماعةٌ منَ النَّاس: إنَّ ذهابَ العلم يكونُ أيضًا بذهاب العَمل به، فيحفَظون القُرآن ولا يعمَلون به فيذهب العلم...

والَّذي عندي أنَّ الوجُوه الثَّلاثة في هذه الأمَّة، فقد يُذنب الرَّجُل حتَّى يُذْهِبَ ذنبُه علمَه، وقد يقرؤه ولا يعمَل به، وقد يُقْبَضُ بعلمه فلا ينتَفعُ أحدٌ به، أو يُمنَع من بثِّه فيذهَب لوقته»(5).

(5) «عارضة الأحوذي» (121.120/10).



رفع العلم وذهابُه بمَوت العُلماء:

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»(6).

قال ابن بطَّال: «وإنَّما يكونُ قبضُ العلم بتَضييع التَّعلُّم فلا يُوجَد فيمَن يبقَى مَن يخلُف مَن مضى»(7).

ومن أزمان بعيدة متقدِّمة والعُلماء يؤكِّدون تحقُّقَ معنى هذا الحديث، ففي «عمدة القاري» للعيني (83/2): «قَال القاضي عياض: وَقد وجد ذَلك في زمانِنَا، كما أخبر به عَلَيْه الصَّلاة وَالسَّلام؛ قَالَ الشَّيخ قطب الدِّين: قلتُ: هَذَا قَوْلُه مَعَ توفُّر العلمَاء في زمانه، فكيف بزماننا؟ قَالَ العَبد الضَّعيف(8): هَذَا قَوله معَ كَثْرة الفُقَهاء والعُلَماء من المذَاهب الأَربعَة والمحدِّثين الكبَار في زمَانه، فكيف بزماننا الَّذي خَلَت البلاد عَنْهُم، وتصدَّرت الجُهَّال بالإفتاء والتَّعيُّن في المجالس والتَّدريس في المدارس؟ فنسأَلُ السَّلامَة والعافية».

ولا جرمَ أنَّ موتَ العلماء نقصٌ في الدِّين، وعلامة لحلول البَلاء المبين، لهذا قال الحَسن البَصري: «كَانُوا يَقُولُونَ: مَوْتُ العَالم ثُلْمَةٌ في الإسْلام لا يَسُدُّهَا شَيْءٌ مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»(9)، فلا يزالُ النَّاس في خير وعافية وصلاح مَا بَقيَ العالم بينَ أظهرهم حَتَّى يُتَعَلَّمَ منه، فَإذَا هَلَكَ قَبْلَ أَنْ يُتَعَلَّمَ منه هَلَكَ النَّاسُ، فقد سئل سَعيد بن جُبَيْر: مَا عَلامَةُ هَلاك النَّاس؟ قَالَ: «إذَا هَلَكَ عُلَمَاؤُهُمْ»(10)، فالعُلماء لا يعوِّض مكانهم الخطباء ولا الوعَّاظ ولا الدُّعاة ولا أنصافُ العلماء، ولا يمكن أن يحلَّ محلَّهم ويستلم وظيفتَهم الأحزاب ولا الجمعيَّات ولا التَّكتُّلات، فمكانة العالم ومنزلتُه الَّتي بوَّأه الله إيَّاها لا يملؤُها عند ذهابه إلاَّ عالمٌ مثلُه.

فنهيبُ بكلِّ مَن يرى من نفسه أهليَّةً أن يتوجَّه إلى طلب

(6) رواه البخاري (100)، ومسلم (2673).

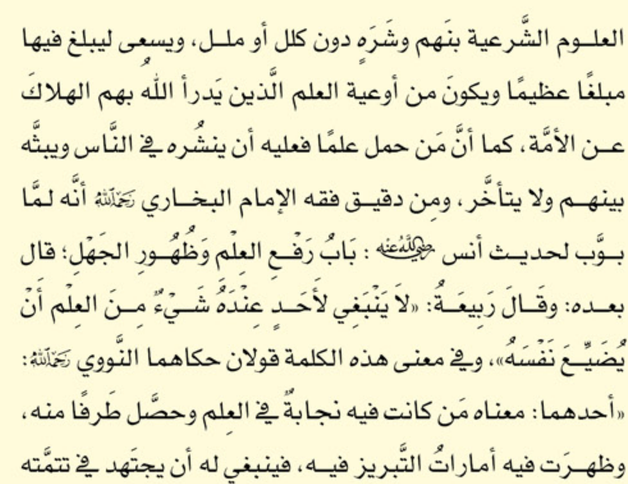
(7) «شرح ابن بطال على صحيح البخاري» (177/1).

(8) أي الحافظ العيني.

(9) رواه الدَّارمي (333) بإسناد صحيح.

(10) رواه الدارمي (247)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (1023).





العلـوم الشَّرعية بنَهم وشَرَه دون كلل أو ملـل، ويسعى ليبلغ فيها مبلغًا عظيمًا ويكونَ من أوعية العلم الَّذين يَدرأ اللهُ بهم الهلاكَ عـن الأمَّة، كما أنَّ مَن حمل علمًا فعليه أن ينشره في النَّاس ويبثَّه بينهـم ولا يتأخَّر، ومِن دقيـق فقه الإمام البخـاري رَحِمَهُ اللهُ أنَّه لمَّا بـوَّب لحديـث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بَابُ رَفْـعِ العِلْمِ وَظُهُـورِ الجَهْلِ؛ قال بعـده: وقَـالَ رَبِيعَـةُ: «لاَ يَنْبَغِي لأَحَـدٍ عِنْدَهُ شَـيْءٌ مِـنَ العِلْمِ أَنْ يُضَيِّـعَ نَفْسَهُ»، وفي معنى هذه الكلمة قولان حكاهما النَّووي رَحِمَهُ اللهُ: «أحدهما: معناه مَن كانت فيه نجابةٌ في العلم وحصَّل طَرفًا منه، وظهـرَت فيه أماراتُ التَّبريز فيـه، فينبغي له أن يجتَهد في تتمَّته ولا يضيِّع طَلَبَه فيضيِّع نفسَه.

والثَّـاني: معنـاه مَـن حصَل له العلـم ينبغي لـه أن يسعَى في نشره مبتغيًا بـه رضَى الله تعالى، ويُشيعه في النَّاس لينتَقل عنه، وينتفعَ به النَّاس وينتفعَ هُو، وينبغي أن يَرفُقَ في نشره بمَن يأخذُه منــه، ويسهِّل طُرُقَ أخذِه ليكونَ أبلغَ في نصيحة العلم، فإنَّ الدِّين النَّصيحة»[11].

وإنَّ طلبَ العلم ونشره من أفضل القُربات، ولهذا لمَّا قِيلَ لعَبْد اللهِ بـنِ المبَارَك: «لَوْ قِيـلَ لَكَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُـرِكَ إِلاَّ يَوْمٌ مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ أُعَلِّمُ النَّاسَ»[12].

وعلـى مَن لم يكـن عالـما أو طالبَ علم أن يكـونَ محبًّا للعلم وأهلِه، ويفتخر بالانتظـام في سِلكهم ويتشرَّف بالانتساب إليهم، وأن يحمـل همَّ إيجاد العـالم في الأمَّة، فيسعى بـكلِّ ما أوتي من وسائل مشروعـة لإيجاده وتيسير الطَّريـق لطلبة العلم الجادِّين الَّذيـن يُتوسَّـم فيهم الخير ليبلغـوا مُرادَهم مـنَ العلم، ويكونوا علمـاء همُّهم نَشـر العلم وبثِّـه، ورفـع الجهل وتقليلـه، ليُحفظ لهـذه الأمَّة كرامتها وخيريتها، وأن يكون هذا التَّصوُّر مغروزًا في قلوبنا، ومستوليًا على أفكارنا إن أردنا عزًّا وسعادةً وتمكينًا، قالَ الزُّهـريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كان مَـنْ مضَى منْ عُلمائنَا يَقولُـونَ: الاعْتِصَامُ بالسُّنَّـةِ نجـاةٌ، والعِلمُ يُقبَضُ قَبْضًا سريعًا، فنَعْشُ العلم ثَبَاتُ الدِّيـنِ والدُّنيا، وذهابُ ذلك كُلِّه في ذهاب العلم»[13] ونعشُ العلم أي وجودُه وانتشارُه وكثرتُه، ولا يتمُّ ذلك إلاَّ بالعُلَماء.

(11) «بستان العارفين» (ص:40)، وانظر: «فتح الباري» (1/178).

(12) رواه البيهقي في «المدخل إلى السُّنن» (473).

(13) رواه ابن المبارك في «الزُّهد» (817)، والدَّارمي (97) بسند صحيح.

رفع العلم وذهابُه بعدم العمل به:

عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَـرِهِ إِلى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: **هَـذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّـى لاَ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**؛ فَقَالَ زِيَـادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيْـفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا؛ وَقَدْ قَرَأْنَـا القُرْآنَ؟ فَوَاللهِ لَنَقْرَأَنَّـهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَـا وَأَبْنَاءَنَـا، فَقَالَ: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ مِـنْ فُقَهَـاءِ أَهْـلِ المدِينَـةِ؛ هَـذِهِ التَّـوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْـدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**

قَـالَ جُبَيْرٌ: فَلَقِيـتُ عُبادةَ بنَ الصَّامت، قلـتُ: ألاَ تسمعُ إلى ما يَقـولُ أخُوك أبو الـدَّرداء؟ فأخبرتُه بالَّذي قـال أبو الدَّرداء؛ قـالَ: صَدقَ أبو الـدَّرداء، إنْ شئْتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بـأوَّل علم يُرفَعُ من النَّاس؟ الخُشُـوعُ، يُوشِكُ أنْ تَدْخُلَ مسجـدَ جماعَةٍ فلاَ تَرَى فيه رجُلاً خاشعًا»[14].

قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ في «جامع العلوم والحكم» (2/299-300): «وإنَّما قال عُبادة هذا؛ لأنَّ العلمَ قِسمان:

أحدهما: مـا كانَ ثمرتُه في قلـبِ الإنسان، وهُـو العلمُ بالله تعـالى وأسمائه وصفاتـه وأفعالـه المقتَضي لخشيتـه، ومهابته، وإجلاله، والخضوع له، ولمحبَّته، ورجائه، ودعائه، والتَّوكُّل عليه، ونحـو ذلـك، فهذا هو العلـمُ النَّافع، كمـا قال ابنُ مسعـود: «إنَّ أقواماً يقرأون القُرآن لا يُجاوِزُ تَراقيهم، ولكن إذا وقَعَ في القلب، فرسَخ فيه نَفَع»[15].

وقال الحسنُ: «العلمُ علمـان: علمٌ على اللِّسان، فذاك حُجَّةُ الله على ابن آدم، وعلمٌ في القَلب، فذاك العلم النَّافع»[16].

والقسـم الثَّـاني: العلـمُ الَّذي علـى اللِّسَانِ، وهـو حجَّةُ الله

(14) أخرجه التِّرمذي (2653)، والحاكم (1/179) وصحَّحه ووافقه الذَّهبي، والألباني في «صحيح الجامع» (6990).

(15) أخرجه مسلم (822).

(16) أخرجه الدَّارمي (376).

كمـا في الحديث: «**القُرآن حجَـةٌ لكَ أو عليكَ**»[17]، فـأوَّلُ ما يُرفعُ مـنَ العلم، العلـمُ النَّافع، وهو العلم الباطنُ الـذي يُخالطُ القلوبَ ويُصلحُها، ويبقى علمُ اللِّسان حجَّةً، فيتهاونُ النـاسُ به، ولا يعمَلون بمقتَضَاه، لا حَمَلَتُه ولا غيرُهم، ثمَّ يذهبُ هذا العلم بذهاب حَمَلته، فـلا يبقى إلاَّ القُرآن في المصاحـف، وليسَ ثَمَّ مَن يعلمُ معانيه، ولا حـدودَه، ولا أحكامَـه، ثـمَّ يُسرى به في آخر الزَّمـان، فلا يبقى في المصاحف ولا في القُلوب منه شيءٌ بالكليَّة، وبعد ذلك تقومُ السَّاعة، كما قال ﷺ: «**لا تقومُ السَّاعة إلاَّ على شرار النَّاس**»[18]، وقال: «**لا تقومُ السَّاعةُ وفي الأرض أحدٌ يقولُ: الله الله**»[19].

وقـال القرطبي: «وأمَّـا قلَّةُ العلم وكثرةُ الجَهـل فذلكَ شائعٌ في جميع البلاد ذائعٌ، أعني برفْع العلم وقلَّته: تركَ العَمل به»[20].

ولهـذَا قيلَ: «مَنْ عَملَ بمـا عَلمَ أَوْرَثَهُ اللهُ علْمَ مـا لمْ يَعْلَمْ».

وعليه؛ فلا يجب أن تتوجَّه العناية إلى القرآن بحفظه في الصُّدور وإقامـة حروفه وحسـن قراءته وتجويـده، ثمَّ نغفل تدبُّـر آياته، وفَهـم معانيه، والعَمل بأحكامه، فـ«إنَّ مجـرَّدَ بقاء حفظ الكتاب لا يُوجِـبُ هذا العلـمَ، لا سيَّما أنَّ القُرآنَ يَقْـرَؤُهُ المنافقُ والمؤمنُ، ويقـرَؤُهُ الأُمِّيُّ الَّـذي لا يعلَمُ الكتابَ إلاَّ أمَـانيَّ»[21]، فالسَّبيل إلى حفـظ العلم وتثبيتـه هو العمل به كما قال جـلَّ ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء].

رفع العلم وذهابُه بمحوه من الصُّدور:

إنَّ اللهَ تعـالى تكفَّـل بحفـظ كتابه، ولـن تَصل يـدُ التَّبديل والتَّحريف إلى حروفه أبدًا إلى أن تأتي ليلةٌ يُرفع فيها القرآنُ إلى السَّماء ويُمحى من الصُّدور والسُّطور، فلا يبقى منه في الصُّدور كلمة، ولا في المصاحف منه حرف.

ومصـداق هذا ما جـاء عن حُذيفةَ رضي الله عنه قـال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَدْرُسُ[22] الإسْلامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْب، حَتَّى لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ، وَلا صَلاةٌ، وَلا نُسُكٌ، وَلا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كتَاب الله عَزَّ وَجَلَّ في لَيْلَة، فَلا يَبْقَى في الأَرْض منْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِـفُ منَ النَّاس الشَّـيْخُ الكَبيرُ وَالعَجُـوزُ، يَقُولُـونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذه الكَلمَة «لا إلَهَ إلاَّ الله» فَنَحْنُ نَقُولُهَا**»[23].

وهذا يكون في آخر أيَّام الدُّنيا بعدَ موت عيسى عليه السلام[24].

قال ابن كثـير في «البداية والنِّهايـة» (44/19): «وَهَذَا دَالٌّ عَلَى أَنَّ العلم قَد يُرفع من صدور الرِّجال في آخر الزَّمان حَتَّى إنَّ القُرآنَ يُسْرَى عليه فيرفع من المصاحف والصُّدور، ويبقى النَّاس بـلا علم ولا قـرآن، وإنَّما الشَّيخ الكبير والعجـوز المسنَّةُ يُخبران بأنَّهـم أَدْرَكُـوا النَّاسَ وَهُـمْ يَقُولُونَ لا إلَـهَ إلاَّ اللهُ، فهم يقولونها أيضًـا على وجـه التقرب بهـا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فَهـيَ نَافعَةٌ لَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عنْدَهُمْ منَ العَمَل الصَّالح وَالعلْم النَّافع غَيْرُهَا...».

وجاء تقريـر هذا المعنى عـن بعض الصَّحابـة كابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهم، ولا ريب أنَّ حديثهم له حكم الرَّفع؛ لأنَّ أمـور الغيب لا تعـرف بالرَّأي، فعن أَبـي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «**يُسْرَى عَلَى كتَاب الله فَيُرْفَعُ إلى السَّمَاء، فَلا يُصْبحُ في الأَرْض آيَةٌ منَ القُرْآن وَلا منَ التَّوْرَاة وَالإنْجيل وَلا الزَّبُور، وَيُنْتَزَعُ منْ قُلُوب الرِّجَال فَيُصْبحُونَ وَلا يَدْرُونَ مَا هُوَ**»[25].

ولهـذا جرى على لسـان أهل السُّـنَّة قديما عبـارة: «القُرْآنُ كَلامُ الله منْـهُ بَدَأَ وَإِلَيْه يَعُودُ»؛ وأفرد الضِّياء المقدسي (643هـ) جـزءا سمَّاه «اختصاص القرآن بعَوْده إلى الرَّحمن الرَّحيم» وهو مطبوعٌ متداول.

وفي الأخير يحسن بنا أن ندعو كل من يقف على هذه الكلمة أن لا يتأخَّر ولا يتوانى في طلب العلم النَّافع الَّذي يعرِّفُه ربَّه وأحكامَ شريعته من العلماء، وينشر ما أمكنه منه بين أهله وذويه وأقربيه قبـل أن يُرفع ولا يبقـى منه شيءٌ؛ قال ابـن مسعود رضي الله عنه: «يَا أَيُّهَا النَّـاسُ! عَلَيْكُمْ بالعلْم قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، فَإِنَّ منْ رَفْعه أَنْ يُقْبَضَ أَصْحَابُـهُ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ وَالتَّنَطُّعَ، وَعَلَيْكُمْ بالعَتيق، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ في آخر هَذه الأُمَّة أَقْوَامٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إلَى كتَاب الله، وَقَدْ تَرَكُوهُ وَرَاءَ ظُهُورهمْ»[26].

(17) أخرجه مسلم (223) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.
(18) أخرجه مسلم (2949) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(19) أخرجه مسلم (148) من حديث أنس رضي الله عنه.
(20) «التَّذكرة» (ص: 1241) ط دار المنهاج ـ الرياض.
(21) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (304/18).
(22) أي يذهب.
(23) أخرجه ابن ماجه (4049)، والحاكم (520/4) وصحَّحه وأقرَّه الذَّهبي، وقوَّى إسناده الحافظ في «الفتح» (16/13)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (87).
(24) «التذكرة» (ص:1261).
(25) أخرجه الحاكم (552/4) وقال: صَحيحٌ عَلَى شَرْط مُسْلم، ووافقه الذَّهبي.
(26) أخرجه البيهقي في «المدخل» (388).



ثبوت صفة الوجه لله سبحانه وتعالى

والرد على النفاة والمتأولة

عز الدين مارير
مرحلة الماجستير في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية. قسم العقيدة

الحمد لله الَّذي وعد بالحسنى من آمن به وأناب، وتفضَّل بالزِّيادة عن الحسنى بالنَّظر إلى وجهه، كما ورد عن رسوله ﷺ ونقله الأصحاب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، من كان له النُّور حجابًا، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله الهادي إلى سبيله بالسُّنَّة والكتاب، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه ذوي الألباب، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الحساب.

أمَّا بعد:

فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سمَّى نفسه بأسماء حسنى بالغة في الحسن غايته، ووصفها بصفات كمال عليا، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ومجَّد ذاته بأوصاف جامعة لمعانٍ دالَّة على عظمته، وصمديَّته، وممَّا أخبرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه من صفاته المقدَّسة أنَّ له وجهًا ذوَّاه بالجلال والإكرام.

والوجه صفة من الصِّفات الذَّاتية الخبريَّة الّتي ثبتت بالوحي، وهي من الصِّفات التَّوقيفيَّة الَّتي لا مجال للعقل في إثباتها، وإن كان في الوقت نفسه لا يحيلها، فهو تابع للوحي مصدِّق غير رافض.

ومن هنا؛ فإنَّنا نثبت لله ـ سبحانه وتعالى ـ وجهًا يليق بجلاله وعظمته لا يشبه وجوه المخلوقين، ونؤمن بأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصفه بصفات، كالجلال والإكرام، وأنَّ سُبُحَاته لو كشفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأحرقت ما انتهى إليه بصره ـ سبحانه وتعالى ـ، وأنَّه موصوف بنور حجبه من رؤية الخلق له[1].

وقد دلَّ على هذه الصِّفة نصوص كثيرة، من الكتاب والسُّنَّة إليك بعضًا منها:

- قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [سورة الرحمن].
- قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٨﴾ [سورة القصص] فـ«نفى عنه الهلاك إذا أهلك الله ما قد قضى عليه الهلاك ممَّا قد خلقه الله للفناء لا للبقاء، جلَّ ربُّنا عن أن يهلك شيءٌ منه، ممَّا هو من صفات ذاته»[2].

أمَّا من السُّنَّة:

- فقد فسَّر النَّبيُّ ﷺ الزِّيادة في سورة يونس بالنَّظر إلى وجه الله تعالى، فعن صهيب عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ؛ قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ**»، ثمَّ تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26][3].
- عن جابر رضي الله عنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: 65]، قال رسول الله ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: 65] قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم

(1) هذا في الدُّنيا، أمَّا في الآخرة فقد ثبت في النُّصوص أنَّه يكشف الحجاب فلا يرى أهل الجنَّة أنهم أُعطوا نعيمًا أفضل من رؤية وجه الله تعالى.

(2) «كتاب التَّوحيد» لابن خزيمة (24/1).
(3) رواه مسلم (181).

بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65]، قال رسول الله ﷺ: «**هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ**»[4].

● عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله ـ عز وجل ـ لا يَنَامُ ولا يَنْبَغي لَهُ أنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليْه عَمَلُ الليْل قَبْلَ عمل النَّهار، وعَمَلُ النَّهار قَبْلَ عمل الليْل، حجَابُهُ النُّورُ**، ـ وفي رواية: «**النَّار**» ـ **لو كَشَفَه لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِه مَا انْتَهَى إلَيْه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِه**»[5].

● عن عطاء بن السَّائب عن أبيه قال: كنَّا جلوسًا في المسجد فدخل عمَّار بن ياسر فصلى صلاةً خفَّفها فمرَّ بنا فقيل له: يا أبا اليقظان! خفَّفت الصَّلاة؛ فقال: أو خفيفةً رأيتموها؟ قلنا: نعم، قال: أما أنِّي قد دعوتُ فيها بدعاءٍ قد سمعته من رسول الله ﷺ ـ وفيه ـ «...**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظرِ إلَى وَجْهِكَ وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إلَى لقَائكَ في غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بزينَة الإيمَانِ واجعلنا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»[6].

قال ابن خزيمة رحمه الله: «ألا يعقل ذوو الحجا ـ يا طلاَّب العلم ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يسأل ربَّه ما لا يجوز كونه، ففي مسألة النَّبيِّ ﷺ ربَّه لذَّة النَّظر إلى وجهه أبين البيان وأوضح الوضوح أن لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وجهًا يتلذَّذ بالنَّظر إليه مَنْ منَّ الله جلَّ وعلا عليه وتفضَّل بالنَّظر إلى وجهه»[7].

□ وقد أثبت السَّلف رضوان الله عليهم أجمعين هذه الصِّفة كما وردت بها النُّصوص، على ما يليق بالله ـ سبحانه وتعالى ـ من غير تشبيهٍ لها بصفات المخلوقين، ومن غير تعطيل لها ونفيها.

قال أبو عبد الله ابن منده: «قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [سورة القيامة] أجمع أهل التَّأويل[8] كابن عباس وغيره من الصَّحابة، ومن التَّابعين محمَّد بن كعب، وعبد الرَّحمن بن سابط، والحسن بن أبي الحسن، وعكرمة، وأبو صالح، وسعيد بن جبير، وغيرهم أنَّ معناه إلى وجه ربِّها ناظرة»[9].

وقد نقل إجماعَ السَّلف على إثبات هذه الصِّفة غيرُ واحد من الأئمَّة، منهم ابن خزيمة والأشعري وأبو عثمان الصَّابوني رحمهم الله...

قال ابن خزيمة رحمه الله:

«فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشَّام ومصر مذهبنا: أنَّا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقرُّ بذلك بألسنتنا، ونصدِّق ذلك بقلوبنا، من غير أن نشبِّه وجه خالقنا بوجه أحدٍ من المخلوقين»[10].

■ ■ ■

لقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ وجهه بصفاتٍ كريمة، تدلُّ على عظمة المتَّصف بها ـ سبحانه وتعالى ـ، فمن هذه الصِّفات:

○ **أنَّه ذو الجلال والإكرام:**

وقد دلَّ على هذا الوصف: كتاب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [سورة الرحمن] قال الرَّاغب: «الجلالة: عِظم القدر، والجلال بغير الهاء: التَّناهي في ذلك، وخُصَّ بوصف الله تعالى فقيل: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، ولم يستعمل في غيره، والجليل: العظيم القدر»[11].

وقال القرطبي رحمه الله:

«فمعنى جلاله: استحقاقه لوصف العظمة ونعت الرِّفعة، والمتعالي عزًّا وتكبُّرًا وتنزُّهًا»[12].

والإكرام مصدر أكرم يكرم إكرامًا.

قال الرَّاغب: «والإكرام والتَّكريم: أن يوصَل إلى الإنسان إكرام أي نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه

(4) رواه البخاري (4628).
(5) رواه مسلم (179).
(6) النَّسائي (1305)، وابن حبَّان (1971)، وأحمد (18351)، والحاكم (1923)، وقال: «صحيح الإسناد»، وقال الألباني «صحيح».
(7) «كتاب التَّوحيد» (1/30).
(8) يقصد أهل التَّفسير.
(9) «الرَّدُّ على الجهميَّة» (105).
(10) «كتاب التَّوحيد» (1/26).
(11) «المفردات في غريب القرآن» (94).
(12) «الأسنى بشرح أسماء الله الحسنى» (1/133 ـ 134).

شيئًا كريمًا، أي شريفًا»[13].

ومعنى ذي الجلال والإكرام أنَّه يستحقُّ أن يُجَلَّ ويُكْرَم، فلا يجحد ولا يكفر، وهو يكرم أنبياءه وأولياءه[14].

والإجلال من جنس التَّعظيم، والإكرام من جنس الحبِّ والحمد[15].

○ **أنَّه ذو سبحات:**

من صفات وجه الله تعالى أنَّ له سبحات، وقد جاء هذا في أحاديث عن النَّبيِّ ﷺ، منها: حديث أبي موسى رضي الله عنه وفيه: «... **لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سبحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِه**»[16].

والسُّبحات: جمع سبحة، كغرفة وغرفات، وهي نوره وبهاؤه وجلاله.

○ **أنَّ عليه رداءَ الكبرياء:**

ثبت في «الصَّحيح» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**»[17].

والكبرياء صفة من صفاته جلَّ وعلا الذَّاتيَّة.

○ **أنَّه ذو حجاب:**

جاء لفظ الحجاب مقترنًا بالوجه كما في الحديث المتقدم: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِه**»[18].

قال ابن تيمية رحمه الله:

«فأخبر أنَّه حجب عن المخلوقات بحجابه النُّور أن تدركها سبحات وجهه وأنَّه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه»[19].

(13) «المفردات في غريب القرآن» (429).
(14) انظر: «شأن الدُّعاء» للخطَّابي (91)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (318/16).
(15) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (296/16)، و(320/16).
(16) سبق تخريجه.
(17) البخاري (7444)، ومسلم (180).
(18) سبق تخريجه.
(19) «الفتاوى» (396/6).

موقف النُّفاة والمتأوِّلة من صفة الوجه وبيان تأويلاتهم الباطلة

لقد تنوَّعت عبارات المعطِّلة في نفي هذه الصِّفة، فمن ذلك:

.**الأوَّل**: أنَّهم جعلوا قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الرحمن] مثل قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الرحمن]، وأنَّ الرَّبَّ هو ذو الجلال والإكرام لا الوجه.

.**الثَّاني: قالت طائفة**: لفظ الوجه زائد والتَّقدير: ويبقى ربُّك، إلاَّ ابتغاء ربِّه الأعلى.

.**الثَّالث: وقالت فرقة** أخرى منهم: الوجه بمعنى الذَّات.

.**الرَّابع: وقالت فرقة**: ثوابه وجزاؤه، فجعله هؤلاء مخلوقًا منفصلاً، وقالوا: لأنَّ الَّذي يراد هو الثَّواب.

.**الخامس**: التَّمسُّك ببعض التَّفسيرات للسَّلف كتفسير قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115] بقبلة الله.

الرَّدُّ على تأويلاتهم الباطلة

أمَّا الرَّدُّ[20] عليهم فسيكون مرتَّبًا حسب هذه الأقوال:

□ **الجواب الأوَّل**: وتحته وجهان:

.**الأوَّل**: هذه دعوى يدَّعيها جاهل بلغة العرب؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الرحمن]، فذكر الوجه مضمومًا في هذا الموضع مرفوعًا، وذكر الرَّبَّ ـ بخفض الباء ـ بإضافة الوجه، ولو كان قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ مردودًا إلى ذكر الرَّبِّ في هذا الموضع لكانت القراءة: «ذي الجلال والإكرام» مخفوضًا كما كان الباء مخفوضًا في ذكر الرَّبِّ جلَّ وعلا.

.**الثَّاني**: ألم تسمع قوله تبارك وتعالى ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة الرحمن]، فلمَّا كان الجلال والإكرام في هذه الآية صفة للرَّبِّ، خُفض «ذي» خفض الباء الَّذي ذكر في قوله

(20) انظر: مجمل هذه الرُّدود في «كتاب التَّوحيد» لابن خزيمة (51/1 وما بعدها)، و«مختصر الصَّواعق» لابن القيِّم (992/3 وما بعدها).

﴿رَبِّكَ﴾ ولـمَّا كان الوجه في تلك الآية مرفوعًا، كانت صفة الوجه مرفوعةً فقال: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

□ **الجواب الثَّاني**: وتحته أوجه:

الأوَّل: دعواهـم أنَّ الوجه صلةٌ زائـدةٌ كذبٌ على الله وعلى رسوله، وعلى اللُّغة؛ فإنَّ هذه الكلمة ليست ممَّا عهد زيادتها.

الثَّاني: أنَّـه لو ساغ ذلك لساغ لمعطِّلٍ آخر أن يدَّعي الزِّيادة في قولـه: «أعوذ بعزَّة الله وقدرته»، ويكـون التَّقدير: أعوذ بالله، ويدَّعي معطِّل آخر الزِّيادة في سمعه وبصره...

الثَّالـث: أنَّ هـذا يتضمَّن إلغاء وجهه الكـريم لفظًا ومعنًى، وأنَّ لفظه زائد ومعناه منتف.

الرَّابـع: لـمَّـا أضـاف الوجه إلى الذَّات وأضـاف النَّعت إلى الوجـه وقال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن] دلَّ علـى أنَّ ذكر الوجه ليس بصلة زائـدة، وأنَّ قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ صفة للوجه وأنَّ الوجه صفةٌ للذَّات.

□ **الجواب الثَّالث**: وتحته أوجه:

الأوَّل: أمَّـا تفسيرهم الوجه بالـذَّات، فهذا لا يعرف في لغة مـن لغـات الأمم، وغاية ما شبهوا بـه وجهَ الرَّبِّ ـ عـزَّ وجلَّ ـ أن قالوا: هو كقولك: «وجه الحائط»، و«وجه الثَّوب»، و«وجه النَّهار»، و«وجه الأمر».

والوجـه في اللُّغـة: هـو المستقبل لكلِّ شيء؛ قـال ابن فارس: «الواو والجيم والهاء: أصلٌ واحد يدلُّ على مقابلة لشيء.

والوجه مستقبِلٌ لكلِّ شيء، يقال: وَجْه الرَّجلِ وغَيره، وتقول: وَجْهي إليك...

وواجهتُ فلانًا: جعلتُ وجهي تِلقاءَ وجهه»[21].

الثَّاني: يقال لهم: ليس الوجه في ذلك بمعنى الذَّات، بل هذا مبطل لقولكم، فإنَّ وجـه الحائط أحد جانبيه فهو مقابل لدبره، ومن هذا وجه الكعبة ودبرها، فهو وجه حقيقة.

الثَّالـث: أنَّ الوجه بحسب المضاف إليـه، فلمَّا كان المضاف إليـه بناء كان وجهه من جنسه، وكذلـك وجه الثَّوب أحد جانبيه وهـو من جنسه، وكذلك وجه النَّهار أوَّلـه كما ثبت ذلك عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، ووجه الأمر ما يظهر أنَّه صوابه، فهو في كلِّ محلٍّ بحسـب ما يضاف إليه، فإن أضيـف إلى الله تعالى كان بما يليق بجلاله ـ سبحانه وتعالى ـ.

□ **الجواب الرَّابع**: وتحته أوجه:

الأوَّل: أنَّ حملهم له على الثَّواب المنفصل من أبطل الباطل، فـإنَّ اللُّغـة لا تحتمل ذلـك، ولا يعـرف أنَّ الجزاء يعـرف وجهًا للمجازي.

الثَّـاني: أنَّ الثَّـواب مخلـوق وقـد صـحَّ عن النَّبـيِّ ﷺ أنَّه استعاذ بوجه الله فقال: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الكَرِيمِ**» ولا يُظَنُّ برسول الله ﷺ أنَّه يستعيذ بمخلوق.

الثَّالث: أنَّ النَّبـيَّ ﷺ كان يقـول في دعائـه: «**أَسْـأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَـرِ إِلَى وَجْهِـكَ وَالشَّـوْقَ إِلَى لِقَائِـكَ**» ولم يكـن ليسـأل لذَّة النَّظر إلى الثَّواب المخلوق.

الرَّابـع: الثَّـواب مخلـوق، فيلـزم عليه أن يكـون الله تعالى موصوفًا بشيءٍ من مخلوقاته.

الخامس: ما جاء في الحديـث أنَّ «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَـفَهُ لأَحْرَقَـتْ سُـبُحَاتُ وَجْهِـهِ مَـا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَـرُهُ مِـنْ خَلْقِهِ**» ولا يمكن أن يقال: إنَّ هذا الوصف للجزاء والثَّواب.

□ **الجـواب الخامـس**: أمَّـا تمسُّكهم بما ذهـب إليه مجاهد والشَّافعـي ـ رحمهمـا الله تعالى ـ مـن أنَّ قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115] ليسـت من آيات الصِّفات، وأنَّ المراد بها قبلة الله[22]، وهذا الَّذي ذهبا إليه احتجَّ به بعض أهل البدع على شيخ الإسـلام وأنَّ السَّلف يؤوِّلون، وقد نصر رحمه الله هذا القول وبيَّن أنَّه ليس من محلِّ النِّزاع[23].

(21) «معجم مقاييس اللُّغة» لابن فارس مادَّة (وجه)، (6/88).

(22) انظر «تفسير ابن جرير» (2/536)، و«الأسماء والصِّفات» للبيهقي (2/213 ـ 214).

(23) «الفتاوى» (3/193).



وأمَّـا ابن القيِّم رحمه الله فقـد ردَّ على من يتمسَّك بهذا القول في تأويل بقيَّة النُّصوص على معنى القبلة، من وجوه:

الأوَّل: أنَّ مجاهدًا والشَّافعيَّ وتبعهم ابن تيمية ـ رحمهم الله تعالى ـ قالـوه في موضعٍ واحد، وهو هذه الآيـة لا في كلِّ نصٍّ ورد فيه ذكر الوجه.

الثَّاني: أنَّ الوجـه اطَّرد مجيئه في القـرآن والسُّنَّة مضافًا إلى الـرَّبِّ تعـالى علـى طريقة واحـدة، ومعنى واحـد فليس فيه معنيـان مختلفـان في جميع المواضع، ولا يتعـيَّن حمله على القبلة والجهـة، ولا يمتنـع أن يراد به وجـه الرَّبِّ حقيقـةً، فحمله على موارده ونظائره كلِّها أولى.

الثَّالث: أنَّـه لا يعرف إطـلاق وجه الله علـى القبلة لغةً ولا شرعًا ولا عرفًا، فالقبلة تسمَّى وِجهة كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148]، وقـد تسمَّـى جهـةً، وأصلهـا وِجهة ولكـن أُعلَّت بحذف فائها كزنة وعِدة، ولكـن سمِّيت قبلة ووجهة لأنَّ الرَّجـل يقابلها ويواجهها بوجهه، أمَّا تسميتها وجهًا فلا عهد بـه، فكيـف إذا أضيف إلى الله تعـالى؟ مع أنَّه لا يعـرف تسمية القبلة وجهة الله في شيءٍ من الكلام، مع أنَّها تسمَّى وجهة.

الرَّابع: من المعلوم أنَّ قبلة الله الَّتي نصبها لعباده هي قبلة واحـدة أمرهم بالتَّوجُّه إليها حيث كانـوا لا كلِّ جهة يولي الرَّجل وجهَه إليها، ولا يمكن قصرها على المسافر أو في حال الغيم؛ فإنَّ الآية مطلقة وعامَّة؛ لأنَّ «أين» من ألفاظ العموم.

الخامس: أنَّ الآية لا تَعَرُّضَ فيها للقبلة ولا لحكم الاستقبال، بـل سياقها لمعنى آخـر وهو بيان عظمة الـرَّبِّ ـ سبحانه وتعالى ـ وسعتـه، وأنَّه أكبر مـن كلِّ شيءٍ وأعظم منه، وأنَّه محيط بالعالم العلويِّ والسُّفلـيِّ، فذكر في أوَّل الآية إحاطة ملكه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: 115] منبِّهًـا على ملكه لما بينهما، ثمَّ ذكر عظمتـه ـ سبحانه وتعالى ـ وأنَّه أكبر وأعظم من كلِّ شيءٍ، فأينما ولَّى العبد وجهه فثمَّ وجه الله.

السَّـادس: أنَّـه لـو كان المـراد بوجه الله قبلـة الله لكان قد أضـاف إلى نفسه القِبَلَ كلَّهـا، ومعلوم أنَّ هذه إضافة تخصيص وتشريـف، وما هذا شأنـه لا يكون المضـاف إلاَّ خاصًّا كبيت الله وناقـة الله لا كلَّ البيوت والنُّوق، فقبلـة الله منها هي قبلة بيته لا كلُّ قبلة.

السَّابع: أنَّ الوجه يراد به الجهة والقبلة إذا جاء مطلقًا غير مضـاف إلى الله تعالى كقولك: «قصـدت هذا الوجه»، وسافرت إلى هذا «الوجه» أي: إلى هذه الجهة.

○ ○ ○

وفي الختام نسـأل الله تعالى أن يرزقنا لذَّة النَّظر إلى وجهه الكريم، والشَّوق إلى لقائه في غير ضرَّاء مضرَّة، ولا فتنة مضلَّة، إنَّـه وليُّ ذلك والقـادر عليه، وصلى الله وسلَّم علـى نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حجية السُّنة

د/ مصطفى بوعقل
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

قال الإمام الشَّافعي رحمه الله:

«لم أسمع أحدًا ـ نسبه النَّاس أو نسب نفسه إلى علم ـ يخالف في أنَّ فرض الله عزَّ وجلَّ اتِّباع أمر رسول الله والتَّسليم لحكمه؛ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يجعل لأحد بعده إلاَّ اتِّباعه، وأنَّه لا يلزم قول بكلِّ حال إلاَّ بكتاب الله أو سنَّة رسوله ﷺ، وأنَّ ما سواهما تبع لهما، وأنَّ فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد؛ لا يختلف في أنَّ الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ إلاَّ فرقة سأصف قولها إن شاء الله تعالى».

[«جماع العلم» للشَّافعي (11ـ12)]

أوَّلاً: تعريف السّنة

• جاءت السُّنَّة في اللُّغة بمعنى الطَّريقة والسِّيرة، حسنةً كانت أو قبيحةً، وجاءت بمعنى الأمَّة، وبمعنى المثال والإمام المتَّبع، وبمعنى الطَّبيعة والسَّجيَّة، وبمعنى الوجه[1]؛ ولعلَّها أكثر استعمالاً في المعنى الأوَّل، أي الطَّريقة والسِّيرة.

وقد ورد إطلاقها بهذا المعنى في مواضع كثيرة من كلام الشَّارع، وفي مواطن من كلام العرب.

ومن ذلك في القرآن العظيم قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة النساء]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الفتح]، وقوله أيضًا: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة فاطر].

وفي الحديث قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[2].

(1) انظر هذه المعاني مفصَّلةً بأمثلتها في كتاب: «حجيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (45ـ51)؛ و«دراسات في الحديث النَّبوي» لمصطفى الأعظمي (1/1ـ5)، وانظر تعريف السُّنَّة في اللُّغة في «الفائق في غريب الحديث» للزَّمخشري (201/2)، «مختار الصِّحاح» للرَّازي (207)، «لسان العرب» لابن منظور (501/13)، «المصباح المنير» للفيُّومي (152).

(2) رواه مسلم (1017).

وقوله ﷺ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لاَتَّبَعْتُمُوهُمْ**»[3].

ومنه في كلام العرب قول خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها
فأوَّل راض سنَّة من يسيرها[4]

ومنه أيضًا قول لبيد:

من معشر سنَّت لهم آباؤهم
ولكلِّ قوم سنَّة وإمامها[5]

• وأمَّا معنى السُّنَّة في الاصطلاح، فيختلف لاختلاف مجالاتها واختلاف أغراض البحث فيها؛ وهي في اصطلاح الفقهاء غير ما هو مقصود بها عند الأصوليِّين أو المحدِّثين.

وهي في عرف الأصوليِّين واصطلاحهم: كلُّ ما عدا القرآن من أقوال النَّبيِّ ﷺ وأفعاله وتقريراته ممَّا أثبت حكمًا شرعيًّا[6].

(3) رواه البخاري (3456)، ومسلم (2669).

(4) «ديوان الحماسة» (183/2).

(5) «المعلَّقات السَّبع» (مع شرحها للزَّوزني) (251).

(6) انظر «الإحكام» للآمدي (156/1)، «تحفة المسؤول» للرَّهوني (171/2)، «شرح الكوكب المنير» لابن النَّجَّار (160/2)، «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (68)، «دراسات في الحديث النَّبوي» لمصطفى الأعظمي (1/1)، «أفعال الرَّسول» لمحمَّد سليمان الأشقر (18/1).

بحوث ودراسات

ثانيًا: أقسام السّنة

تنقسم السُّنَّة باعتبارات مختلفة:

1. فباعتبار ذاتها تنقسم السُّنَّة إلى ثلاثة أقسام هي:

□ سنَّة قوليَّة: وهي مجمل أقوال النَّبيِّ ﷺ الَّتي يستفاد منها حكم شرعيٌّ علميٌّ أو عمليّ.

□ سنَّة فعليَّة: وهي أفعاله ﷺ الَّتي يستفاد من جهتها حكم شرعيٌّ عمليّ.

□ سنَّة تقريريَّة: وهي عبارة عن سكوته ﷺ عن قول أو فعلٍ يفعله بعض الصَّحابة بحضرته، أو بعد إخباره به.

2. وباعتبار وصولها إلينا تنقسم إلى قسمين هما:

□ سنَّة متواترة: وهي ما يرويه جماعة لا يمكن عادةً تواطؤهم على الكذب أو الكتمان.

□ سنَّة آحاد: وهي ما عدا ما تواتر عنه ﷺ من الأقوال والأفعال والتَّقريرات.

3. وباعتبار علاقتها بالقرآن تنقسم السُّنَّة إلى ثلاثة أقسام هي:

□ السُّنَّة الموافقة للقرآن المؤكِّدة لما فيه، كوجوب الصَّلاة والزَّكاة؛ فإنَّ الوجوب فيهما ثابت بالكتاب والسُّنَّة على السَّواء.

قال الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلم أعلم من أهل العلم مخالفًا في أنَّ سنن النَّبيِّ ﷺ من ثلاثة وجوه، فاجتمعوا منها على وجهين...: أحدهما: ما أنزل الله فيه نصَّ كتاب، فبيَّن رسول الله ﷺ مثل ما نصَّ الكتاب».

□ السُّنَّة المبيِّنة لما أجمل في القرآن أو أطلق فيه، وعبَّر عن هذا القسم الإمام الشَّافعي بقوله: «والآخر: ممَّا أنزل الله فيه جملة كتاب، فبيَّن عن الله معنى ما أراد»، وقال في موضع آخر: «ومنه ما أحكم فرضَه بكتابه، وبيَّن كيف هو على لسان نبيِّه، مثل عدد الصَّلاة والزَّكاة ووقتها»[7].

□ السُّنَّة المستقلَّة بالتَّشريع أو الزَّائدة على ما في القرآن.

وهذا القسم الثَّالث قال فيه الإمام الشَّافعي في إشارة إلى الخلاف في وجوده: «والوجه الثَّالث: ما سنَّ رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نصُّ كتاب؛ فمنهم من قال: جعل الله له بما افترض من طاعته وسَبَق في علمه من توفيقه لرضاه، أن يسنَّ فيما ليس فيه نصُّ كتاب.

ومنهم من قال: لم يسنَّ سنَّةً قطُّ إلاَّ ولها أصل في الكتاب، كما كانت سنَّته لتبيين عدد الصَّلاة وعملِها، على أصل جملة فرض الصَّلاة؛ وكذلك ما سَنَّ من البيوع وغيرها من الشَّرائع؛ لأنَّ الله قال: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: 29]، وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: 275]، فما أحلَّ وحرَّم فإنَّما بيَّن فيه عن الله كما بيَن الصَّلاة.

ومنهم من قال: بل جاءته به رسالة الله، فأُثْبِتَتْ سنَّتُه بفرض الله.

ومنهم من قال: أُلقي في روعه كلُّ ما سنَّ، وسنَّته الحكمة الَّذي أُلقي في روعه عن الله، فكان ما أُلقي في روعه سنَّتَه»[8].

ويؤكِّد الاختلاف في هذا القسم من السُّنَّة الإمام الشَّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «السُّنَّة راجعةٌ في معناها إلى الكتاب؛ فهي تفصيل مجمله، وبيان مشكله، وبسط مختصره. وذلك لأنَّها بيان له، وهو الَّذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل]. فلا تجد في السُّنَّة أمرًا إلاَّ والقرآن قد دلَّ على معناه دلالة إجماليَّة أو تفصيليَّة»[9].

(7) «الرسالة» للشافعي (22).

(8) «الرِّسالة» للشَّافعي (91-93).

(9) «الموافقات» للشَّاطبي (4/12).



ثالثاً: حجّية السّنة

السُّنَّة حجَّة واجبة الاتِّباع، وطاعة النَّبيِّ ﷺ واجبة بلا خلاف بين أهل الإسلام[10].

قال الإمام الشَّافعي رحمه الله: «لم أسمع أحدًا ـ نسبه النَّاس أو نسب نفسه إلى علم ـ يخالف في أنَّ فرض الله عزَّ وجلَّ اتِّباع أمر رسول الله والتَّسليم لحكمه؛ بأنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يجعل لأحد بعده إلاَّ اتِّباعه، وأنَّه لا يلزم قول بكلِّ حال إلاَّ بكتاب الله أو سنّة رسوله ﷺ، وأنَّ ما سواهما تبع لهما، وأنَّ فرض الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد؛ لا يختلف في أنَّ الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ إلاَّ فرقة سأصف قولها إن شاء الله تعالى»[11].

دلالة القرآن على حجّيَّة سنَّة رسول الله ﷺ:

فسنَّة رسول الله ﷺ حجَّة لدلالة المعجزة على صدقه، وأمر الله تعالى بطاعته، وتحذيره من مخالفة أمره، «لا يخالف في ذلك إلاَّ من لا حظ له في دين الإسلام»[12].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء].

وقال جلَّ وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ [سورة النساء].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة : 92].

وقال سبحانه: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [سورة النور].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [سورة الأحزاب].

(10) انظر «الرِّسالة» للشَّافعي (91)، «جماع العلم» للشَّافعي (11)، «الإحكام» لابن حزم (104/1)، و(128/4)، «مراتب الإجماع» لابن حزم (175)، «الإقناع في مسائل الإجماع» لابن القطَّان (132/1)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (85/19 ـ 86)، «إعلام الموقِّعين» لابن القيِّم (7/1)، و(282/2)، «إرشاد الفحول» للشَّوكاني (33).

(11) «جماع العلم» للشَّافعي (11ـ12).

(12) «إرشاد الفحول» للشَّوكاني (33).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر : 7].

فالأمر بطاعة الرَّسول ﷺ والرَّدِّ إليه عند التَّنازع والاختلاف، وجعل ذلك من موجبات الإيمان ولوازمه، وترتيب الوعيد على من يخالف أمره مع نفي الخيار عن المؤمنين إذا صدر حكم عنه ﷺ، من أظهر الأدلَّة على وجوب اتِّباع السُّنَّة والتَّسليم لحكمها، وأنَّ الاحتجاج بها أصلٌ ثابت من أصول الشَّريعة وقاعدة ضروريَّة من قواعد الدِّين.

دليل السُّنَّة على وجوب الإذعان لأمر رسول الله ﷺ:

ومن سنَّة الرَّسول المصطفى ﷺ دلَّ على وجوب اتِّباع سنَّته ما يلي[13]:

قوله ﷺ: «**تَركْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّه**»[14].

وقوله ﷺ: «**أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِه، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُم فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ...**»[15].

(13) الاحتجاج بالأحاديث الثَّابتة عن رسول الله ﷺ على حجِّيَّة سنَّته واقع ويصحُّ من جهة إخباره بذلك، وقوله الحق لدلالة المعجزة على صدقه. فلمَّا ثبت أنَّ إخباره حقٌّ، وجب تصديقه فيما أخبر به عن نفسه ومن حجِّيَّة سنَّته.

(14) رواه مالك في «الموطَّأ» بلاغًا (648) ووصله ابن عبد البر في «التمهيد» (331/24).

(15) رواه أحمد في «المسند» (17174)، قال الألباني: «صحيح»، انظر «تخريج المشكاة»، الحديث (163) و(4247).



□ دليل الإجماع على حجِّيَّة سنَّة رسول الله ﷺ:

والإجماع دالٌّ على حجِّيَّة السُّنَّة، وهو إجماع الصَّحابة، فكلمتهم رضي الله عنهم متَّفقةٌ على العمل بها، لم يخالف في ذلك منهم أحد، وتصرُّفاتهم في إثبات أحكام الدِّين من عقيدة أو عبادة، وفي الاستدلال على تقرير معاملة أو تصحيحها، وفي الاجتهاد والاستنباط يدلُّ على عدم اختلافهم في ذلك.

فمن تتبَّع «آثار السَّلف وأخبار الخلف ـ من ابتداء عهد الخلفاء الرَّاشدين إلى هذا العهد ـ لم يجد إمامًا من الأئمَّة المجتهدين في قلبه ذرَّة من الإيمان وشيء من النَّصيحة والإخلاص، ينكر التَّمسُّك بالسُّنَّة، والاحتجاج بها، والعمل بمقتضاها، بل بالعكس من ذلك، لا نجد إلاَّ متمسِّكًا بها، مهتديًا بهديها، حاثًّا غيره على العمل بها، محذِّرًا له من مخالفتها، محتجًّا لنفسه وعلى غيره بها، منكرًا عليه إن خالفها أو تهاون بشأنها، معتبرًا لها مكمِّلة للكتاب، شارحةً له، راجعًا عن رأيه ـ الَّذي ذهب إليه باجتهاده في كتاب أو غيره من الأدلَّة ـ إذا ما ظهر له حديث صحَّ عنده، واعتُبِر في نظره.

ولقد رويت هذه العبارة المشهورة: «إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط»؛ وتواتر معناها عن الشَّافعي، ونُقِل ما يقرب منه عن كثير من المجتهدين.

ولقد كانوا يرفعون من شأن الحديث، ويتأدَّبون في مجالسه، ويحترمون أهله ويبجِّلونهم، ويمدحونهم ويعطفون عليهم، ـ معتقدين أنَّ وجودهم أكبر ناصر للدِّين، وأقوى دافع لطعون الطَّاعنين وشبه الملحدين، وأنَّه لا يبغضهم إلاَّ مبتدعٌ فاجر، أو ملحدٌ كافر؛ ويعتنون بروايته، ويجوبون الآفاق، ويضربون في طول البلاد وعرضها، تاركين أعمالهم وملاذهم وشهواتهم وأوطانهم، وأموالهم وأولادهم ـ كلُّ ذلك رغبةً منهم في روايته، وجمعه، وتحقيقه، وحفظه، ومعرفة تاريخه، ونقد صحيحه من الضَّعيف والموضوع.

وما ذاك إلاَّ لأمر عظيم الخطر، جليل الأثر، ألا وهو: أنَّه أصل من أصول الإسلام، وعليه مدار فهم الكتاب وثبوت أغلب الأحكام.

فعلى حجِّيَّة السُّنَّة انعقد إجماعهم، واتَّفقت كلمتهم، وتواطأت أفئدتهم»[16].

(16) «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (341).

وحكى إمام الحرمين في «التَّلخيص» الاتِّفاق على أنَّ ما يقدم عليه الرَّسول ﷺ في تبيين الشَّرع لا على سبيل الاختصاص به فيجب اتِّباعه[17].

ويحمل على ما كان إيجابًا منه ﷺ ابتداءً أو كان بيانًا لواجب، كبيانه لأفعال الصَّلاة والحجِّ وغيرها من الشَّرائع العمليَّة المجملة الواجبة المبيِّنة كيفياتها من جهة سنَّة النَّبيِّ ﷺ.

فيجب اتِّباعه ﷺ فيما شرعه بالأمر به أو النَّهي عنه، ويجب تصديقه فيما أخبر به، لثبوت عصمته وصدقه، ولزوم طاعته[18].

ولا يلتفت في هذا المقام إلى خلاف من خالف في هذه المسألة إن صحَّ نسبة الخلاف فيها إلى أحد ممَّن يعتدُّ بقوله ورأيه في الإسلام.

والعلماء المحقِّقون لا يذكرون خلافًا في حجِّيَّة السُّنَّة لأحد من المتقدِّمين من أصحاب المقالات إلاَّ قولاً منسوبًا إلى الزَّنادقة وطائفة من غلاة الرَّافضة وبعض الخوارج؛ ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسُّنَّة والاقتصار على القرآن[19].

○ توجيه قول الإمام الشَّافعي في حكاية الخلاف في حجِّيَّة السُّنَّة:

أمَّا قول الإمام الشَّافعي رحمه الله: «لا يختلف في أنَّ الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ إلاَّ فرقة سأصف قولها إن شاء الله تعالى»[20]، فإنَّه في حكاية الخلاف في قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ وفي طرق ثبوتها عنه، وليس حكاية للخلاف في أصل حجِّيَّة السُّنَّة.

إذ لو كان هذا الأمر الأخير موضع خلاف بين النَّاس عند الإمام الشَّافعي وأراد الإفصاح عنه لكان الأولى أن يقول: لا يختلف في أنَّ الفرض والواجب اتِّباع أمر رسول الله ﷺ، والتَّسليم لحكمه، وقبول الخبر عنه، إلاَّ فرقة سأصف قولها؛ أو يقول بعد قوله: «وأنَّ الفرض علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول

(17) «التَّلخيص» للجويني (402/3).
(18) انظر «صفة الفتوى والمفتي والمستفتي» لابن حمدان (54).
(19) انظر تفصيل الكلام في هذه المسألة في كتاب «مفتاح الجنَّة في الاحتجاج بالسُّنَّة» للسيوطي (5) وما بعدها، وفي كتاب «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (245 ـ 277)، وانظر «الإحكام» لابن حزم (80/2)، «أصول الدِّين» لعبد القاهر البغدادي (19)، «أصول السَّرخسي» (283/1)، «إرواء الغليل» للألباني (10/1)، «دراسات في الحديث النَّبوي» لمصطفى الأعظمي (21/1 ـ 25).
(20) «جماع العلم» للشَّافعي (11ـ12).

الخبر عن رسول الله ﷺ واحد»: إلاَّ فرقة...

ولكنَّـه لمَّا كان ذكر هـذه العبارة المختصـرة يوجب انسحاب الاستثنـاء على جميع المسائل الَّتي ذكرها ـ مع أنَّ الواجب قصره على الأخير فقط، إذ لا خلاف في وجوب اتِّباع أمر الرَّسول ﷺ ـ عدل عنها إلى العبارة المطوَّلة الدَّافعة لذلك المعنى[21].

ويؤيِّـد هذا المراد قولـه بعد ذلك: «ثمَّ تفـرَّق أهل الكلام في تثبيـت الخبر عن رسـول الله ﷺ تفرُّقًـا متباينًـا»[22]، فإنَّ فيه إشارة إلى أنَّهم إنَّما اختلفوا في إمكان تثبيت الخبر، لا في حجِّيَّة السُّنَّة[23]، والله أعلم.

رابعًا: الخلاف في السُّنَّة المستقلَّة بالتَّشريع

وأمَّـا بالنِّسبـة إلى السُّنَّـة المستقلَّـة بالتَّشريع، فـإنَّ المتفهِّم لـكلام الشَّافعي رحمه الله يلاحـظ أنَّه لم يسمِّ لنـا المخالف فيها[24]، ولم ينسب ـ لا هو، ولا غيرُه ممَّن يعتدُّ بأقوالهم في العلم ـ الخلافَ في صحَّة اعتبارها للصَّحابـة الَّذين لم يعرف عنهم إلاَّ الاعتماد على السُّنَّة مطلقًا في التَّعرُّف على الأحكام الدِّينيَّة، بلا تفريق في ذلك بين أنواع السُّنن، ولكن عمل واتِّباع من غير اختلاف بينهم.

والمعـروف عنهم المنقـول قطعًا أنَّهم قد أجمعـوا على أحكام فرعيَّة لا مستند لها عندهم إلاَّ هذا النّوع من السُّنن، وإجماعُهم على الأخذ منه والاستناد إليه يستلزم إجماعهم على حجِّيَّته[25].

ومـن هـذه الأحكام المستنـدة إلى السُّنَّـة المستقلَّـة: الاتِّفاق على توريث الجـدَّة السُّدس، وعلى مشروعيَّة الشُّفعة، والمساقاة، وعلـى تحريم الجمع بين المـرأة وعمَّتهـا أو خالتها، وعلى تحريم الحمـر الأهليَّـة وكلِّ ذي ناب مـن السِّباع، ونحوهـا من الأحكام الثَّابـت مشروعيَّتها بالسُّنَّة دون أن يوجد لها أصل في الكتاب[26]، ممَّـا يدلُّ على ثبوت السُّنَّة المستقلَّـة بالتّشريع وأنَّها حجَّة واجبة الاعتماد والاتِّباع.

كمـا «أنَّه لا يوجد إمام من أئمَّة المسلمين إلاَّ وقد استدلَّ على حكـم ما ـ مـن الأحكام الفرعيَّة ـ بحديث ما مـن هذا النَّوع، كما يظهر للمتتبِّع لمذاهبهم وكتبهم وآثارهم.

وهـذا منهـم يستلـزم إجماعهـم علـى العمـل بهـذا النَّـوع وحجِّيَّته»[27] الدَّال على وجوده.

أمَّـا إذا كان مراد من نفى وجود هـذا النّوع من السُّنَّة أنَّ ما يصـدر عن رسول الله ﷺ مـن الأقوال والأفعـال المستقلَّة الَّتي ليس لها أصل في الكتاب لم يقصد به تشريع وليس فيه حجَّة[28]، فهو باطل أيضًا على الصَّحيح من مذاهب أهل العلم.

خاتمة

الَّـذي يظهر مـن الأدلَّـة الثَّابتـة، والمستفاد مـن تقريرات العلمـاء في موضـوع السُّنَّـة والاحتجـاج بهـا، أنَّ سنَّـة رسـول الله ﷺ بأقسامهـا الثَّلاثـة حجَّـة، وأنَّها مصدر مـن مصادر التَّشريـع، مثل القرآن الكريم، لم ينازع في ذلك أحد ممَّن يعتدُّ بـه من أهـل العلم، وأنَّهـا تستقـلُّ بالتَّشريع كمـا استقلَّ بذلك القـرآن الكـريم، فما ورد في السُّنَّة فهو حجَّـة به وإن لم يرد به قـرآن، واللهوليُّ التَّوفيـق.

(21) من: «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق بتصرُّف (265ـ266).

(22) «جماع العلم» للشَّافعي (12).

(23) انظر «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (266).

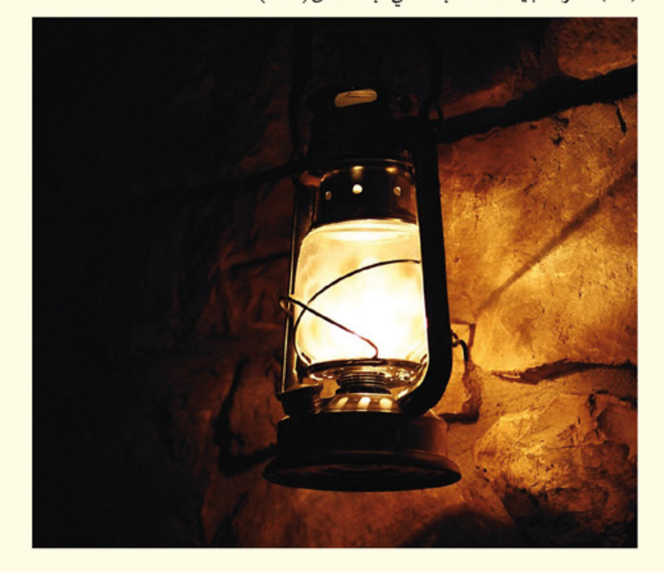
(24) قال ابن عبد البرِّ عند ذكر من خالف في أصل الاحتجاج بالسُّنن ومبيِّنًا شبهتهم في ذلك: «قال عبد الرَّحمن بن مهدي: «الزَّنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث»، يعني ما روي عنه ﷺ أنَّه قال: «ما أتاكم عنِّي فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته وإن خالف كتاب الله فلم أقله وإنَّما أنا موافق كتاب الله وبه هداني الله» وهذه الألفاظ لا تصحُّ عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النَّقل من سقيمه» «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرِّ (2/190 ـ 191)، انظر: «الضَّعيفة» (1400).

(25) انظر «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (514).

(26) انظر حكاية الإجماع على هذه المسائل في «الإقناع» لابن القطان (2/983)، (3/1180، 1429، 1627، 1699).

(27) «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (516).

(28) انظر «حجِّيَّة السُّنَّة» لعبد الغنيِّ عبد الخالق (505).



مسائل منهجية

احذروا الفتن

□□□ أزهر سنيقرة

إنَّ من أهمِّ وظائف الدُّعاة إلى الحقِّ التَّحذيرَ من الشُّرور كلِّها بعد بيانها وتجلية أخطارها، ليجتنبها النَّاس ويسلموا من عواقبها وغوائلها، من باب:

عرفت الشَّرَّ لا للشَّرِّ لكن لتوقِّيه
ومن لا يعرف الشَّرَّ من النَّاس يقع فيه

وهذا على منهج الصَّحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه حيث كان يقول: «كان النَّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخيرِ، وكنت أسأله عن الشَّرِّ، مخافة أن يدركني»[1].

ومن أخطر هذه الشُّرور وأشدِّها فتكًا بالأفراد والجماعات: شرُّ الفتن، فأين يكمن شرُّها وخطرها؟ وما معنى الفتنة؟

الفتنة ـ بالكسر ـ: الخِبرة وإعجابك بالشَّيء، والضَّلال، والإثم، والكفر، والفضيحة، والإضلال، والجنون، والمحنة، والمال والأولاد، واختلاف النَّاس في الآراء.

وجاء في «لسان العرب»[2]: «جماع معنى الفتنة: الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فَتَنْتُ الفضَّة والذَّهب، إذا أذبتهما بالنَّار لتميِّز الرَّديء من الجيِّد».

ومن خلال هذه التَّعريفات يتَّضح لنا أنَّ معناها واسع يشمل أنواعًا كثيرة ونواحٍ عديدة.

وحديثنا هاهنا عن واحد من أنواعها النَّازلة بالمسلمين، وهو خفيٌّ على الكثيرين، إلاَّ أنَّه شديد الفتك وسيِّء العاقبة، يعايش المسلمين حيث ما كانوا وأينما حلُّوا، ويضاجعهم ويؤاكلهم ويشاربهم، إنَّها فتنة النَّفس!

وهل يفتن الإنسان نفسه؟ نعم؛ ودليله قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحديد].

وإن كانت الآية نزلت في المنافقين، إلاَّ أنَّ هذه الأوصاف لصيقة بكثير من المسلمين، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب.

قال ابن كثير رحمه الله (18/8) عند قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: «قال بعض السَّلف: أي: فتنتم أنفسكم باللَّذات والمعاصي والشَّهوات، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخَّرتم التَّوبة من وقت إلى وقت.

وقال قتادة: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالحقِّ وأهله، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: بالبعث بعد الموت، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: قلتم سيغفر لنا، وقيل: غرَّتكم الدُّنيا ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾».

وقال البغوي (296/4): «﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أهلكتموها بالنِّفاق والكفر، واستعملتموها في المعاصي والشَّهوات وكلُّها فتنة».

فالإنسان يفتن نفسه بصدِّها عن الهدى، وإهلاكها بشُعب الكفر والنِّفاق، وبأمراض الشَّهوات والشُّبهات، وأعظمها فتنة البعد عن الوحيين: الكتاب والسُّنَّة، ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الإسراء].

والفتنة هنا بمعنى الإبعاد عمَّا أوحي إليه ﷺ، وهذه الآية الكريمة أوضحت غاية الإيضاح براءَةَ نبيِّنا ﷺ من مقاربة الرُّكون إلى الكفَّار، فضلاً عن نفس الرُّكون؛ لأنَّ ﴿وَلَوْلَا﴾ في الآية الَّتي بعدها[3] حرفُ امتناع لوجود التَّثبيت من الله ـ جل وعلا ـ لأكرم خلقه ﷺ.

وهذا ديدن أهل الكفر دائمًا وأبدًا، أن يفتنوا النَّاس عن دينهم حتَّى يتركوا العمل به أو ببعضه؛ كان هذا ونبيُّ الهدى ﷺ بين ظهراني المسلمين، وأعداءُ الله يتربَّصون، ولايزالون؛ إلاَّ أنَّ اليوم بات الأمر أعظم! والخطب أشدَّ! ذلك أنَّ المؤامرة الَّتي يراد بها فتنة عباد الله يديرها أناس من بني جلدتنا، و يتكلَّمون بألسنتنا!

(1) رواه البخاري (3606)، ومسلم (1847).
(2) (187/10).
(3) هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [سورة الإسراء].

يُصِرُّون على محاربة الدِّين بالطَّعن في السُّنَّة والتَّحامل على أئمَّة الهدى بدعاوى كثيرة، كمحاربة التَّشدُّد والغلوِّ، والتَّصدِّي للوهَّابيَّة، أو بدعوى التَّجديد والعصرنة، أو مسايرة الواقع والحوار مع الآخر، إلى غير ذلك ممَّا قد نقرؤه أو نسمعه.

وتكمن خطورة هذا النَّوع من الفتن في ظواهرها الكاذبة الخادعة، وبواطنها المهلكة القاتلة!

العاصم منها ومن غوائلها: التَّمسُّك بالوحيين والسَّير فيهما على فهم سلف الأمَّة، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام]، وحتَّى لا يقع في المشاقَّة لهديه ﷺ وسبيل المؤمنين الَّتي حذَّر منها ربُّ العالمين: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء].

ومن مظاهر فتنة النَّفس: أن تنزل بالمسلمين نازلة عظيمة، فتستفزُّهم وتستنفرهم، ويهيجون ويموجون، ويقومون ولا يقعدون، ثمَّ لا يرجعون إلى كبرائهم وعلمائهم، بل يتَّبعون سفهاءهم وحدثاءهم! ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ٨٣﴾ [النساء].

فالواجب على المؤمن أن يعالج الأمور بالشَّرع، وينظر إليها على وفق ما تدلُّ عليه نصوص الوحيين، مسترشدًا بأقوال العلماء الرَّبَّانيِّين؛ لأنَّ غياب المعالجة الشَّرعيَّة لما يحلُّ بالمسلمين، يزيد من تعاظم الفتنة وتفاقم خطرها؛ وإنَّ تحكُّم أهل الانفعال والاستعجال الَّذين أنابوا أنفسهم عن الأمَّة ـ تعسُّفًا وفضولاً ـ، وتغييب أهل العلم جعل الأمَّة على طريق الفتنة تسير!

وكما أسلفنا أنَّه لا عاصم لنا من هذه الفتنة أوغيرها إلاَّ التَّمسُّك بالوحيين، فمن تمسَّك بهما أنجاه الله تعالى، ومن دعا إليهما هدي إلى صراط مستقيم ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: 103].

وقال ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**»[4].

(4) أخرجه الحاكم (172/1)، انظر: «صحيح الجامع» (2937).

وقال ﷺ محذِّرًا أمَّته ممَّا ستبتلى به: «**إِنَّمَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ**»، قالوا: وما نصنع يا رسول الله؟ قال: «**تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمُ الأَوَّلِ**»[5].

فنتمسَّك بكتاب الله، نعمل بمحكمه، ونؤمن بمتشابهه، ونتحاكم إليه، ونأخذ بسنَّة نبيِّنا ﷺ ونقدِّمها على أقوال الرِّجال وآرائهم مهما بلغت منزلتهم.

ومن أسباب النَّجاة من الفتن: الالتفاف حول العلماء الرَّبَّانيِّين، فهو من أهمِّ العوامل المعينة على الثَّبات وعدم الزَّيغ والانحراف وقت حدوثها، وهم من يصدق فيهم قول المصطفى ﷺ: «**إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ**»[6].

وهكذا على مرِّ تاريخ هذه الأمَّة، فإنَّ الله ثبَّت المسلمين بعلمائهم، قال ابن المديني رحمه الله: «أعزَّ الله الدِّين بالصِّدِّيق يوم الرِّدَّة، وبأحمد يوم المحنة».

وأُثر عن ابن القيِّم رحمه الله أنَّه كان يقول: «كنَّا إذا اشتدَّ علينا الخوف، وساءت منَّا الظُّنون وضاقت بنا الأرض أتيناه ـ أي: شيخ الإسلام ـ فما هو إلاَّ أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كلُّه وينقلب انشراحًا وقوَّةً ويقينًا وطمأنينةً».

فما أحسن أثر العلماء على النَّاس، وأقبحَ أثر النَّاس عليهم؛ فوجود أمثال هؤلاء من أعظم نعم الله على الأمَّة، خاصَّة في زمن كثرة الرُّويبضات، لذا كان من شكر الله على هذه النِّعمة حفظ قدرهم وتنزيلهم منزلتهم، وأن تكون المرجعيَّة إليهم في قضايا هذه الأمَّة كلِّها.

كما أنَّ الإقبال على الله بأنواع الطَّاعات مكفِّرة لشرِّ هذه الفتنة وغيرها «**فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي نَفْسِه وَأَهْلِه وَمَالِه وَوَلَدِه وَجَارِه يُكَفِّرُهَا الصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ وَالصَّلاَةُ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ**»[7].

عصمنا الله من شرِّ الفتن، وأسعدنا بتجنُّبها، وصلى الله على نبيِّنا القائل: «**إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا**»[8].

(5) أخرجه الطَّبراني في «الكبير» (3232)، والطَّحاوي في «مشكل الآثار» (1184)، انظر: «الصَّحيحة» (3165).
(6) «صحيح ابن ماجه» (233).
(7) أخرجه مسلم (144).
(8) رواه أبو داود (4263).

أثر قواعد المحدِّثين في تقويم سلوك المؤمن

الزَّواوي ملياني . وهران



قد كنت برهة من الزَّمن مضى عليَّ، أقلِّب فيه ما يقرِّره العلماء من القواعد والضَّوابط وغيرها من الكلِّيَّات المتنوِّعة، في شتَّى الفنون الدِّينيَّة، وفنِّ الحديث خاصَّة، فأراها وأنا أعاينُها ـ وهي قواعد يظنُّها الكثير جافَّة ـ لا تخلو من عظات عزيزة، وتنبيهات على التَّربية الرَّشيدة، بل أجدها مستودَعة لمعان أوسع ممَّا وُضعت له في بابها خاصَّة، تنضح بالدِّلالة على كمال الشَّريعة وإتقانها، وأنَّها يقينًا لم تُصنَّف لتخصَّ زمنًا بعينه كما يظنُّ من لا يمعن، ولكنَّها كانت وستبقى، لتصلح بها دنيا النَّاس إلى آخر يوم من هذا الوجود.

إنَّ في علوم الشَّريعة الكفاية وزيادة، للنُّهوض بالأمَّة من جديد، نهضة فكريَّة وعلميَّة وسلوكيَّة، يجمع فيها بين النَّقل الصَّحيح والعقل الصَّريح، وإنَّ في القواعد المبثوثة في كلِّ علم، في فروعه وأصوله، ما يستطيع المسلم أن يكوِّن من خلاله عقليَّة دينيَّة، عتيقة متينة، عاصمًا بها نفسَه من كثير من الفوضى والتَّلجلج الَّذي يعيش به من لم ينضبط بالوحيين.

ولأنَّ التَّربية الحسنة تنشأ من صحَّة العلم؛ سدادًا واستمدادًا، ولا يكون لهذا العلم دورٌ في الرُّقيِّ والصَّلاح بدونها، حرَّض كثير من علماء المسلمين الأمَّة على التَّبصُّر في هذا الأمر.

قال البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم الخالي من التَّربية؛ ضرره أكثر من نفعه، وما أصيب المسلمون في عزَّتهم إلاَّ يوم فارقت التَّربية الصَّالحةُ العلمَ، وكم شقي أصحابُ العلم المجرَّد بالعلم وأشقوا أممهم، والسَّعادة غايةٌ لا يُسلكُ إليها طريق العلم وحده، من غير أن تصاحبه التَّربية، وأنَّ الجمع بين التَّربية والتَّعليم، هو وظيفة النُّبوَّة الَّتي بيَّنها الوحي في آية: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَة]»[1].

ومن روائع ما يذكر في ترجمة الشَّيخ ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه كان وهو يعلِّم الطَّلبة بعض مبادئ النَّحو؛ يقف عند كون الفاعل مرفوعًا مبيِّنًا أنَّ سبب كونه مرفوعًا قيامه بالفعل، وهكذا المؤمن إذا عمل صالحًا واستنهض نفسه للخير، رفعه الله وأعلى منزلته.

ومن جميل ما قاله العبد الصَّالح مطرِّف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عقول النَّاس على قدر زمانهم».

يريد أنَّ الزَّمان إذا كان زمان نهضة وحياة رائدة في التَّفكير والنُّضوج أو محاولة النُّهوض بالأمَّة من جديد على طريق رسول الله ﷺ وهدي السَّلف، كانت العقول على قدر ذلك همَّةً ونشاطًا ونضوجًا، وإذا كان العكس كان العكس.

ولأجل أنَّ العقل لا يمكنه أن ينفكَّ عن الشَّرع، ولا الشَّرع يمكنه القيام من دون عقل يحيى من خلاله.

(1) «الآثار» (173/4).

مسائل منهجية

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنَّه ليس مستقلاً بذلك، بل هو غريزة في النَّفس، وقوَّة فيها بمنزلة قوَّة البصر الَّتي في العين، فإن اتَّصل به نور الإيمان، والقرآن كان كنور العين إذا اتَّصل به نور الشَّمس والنَّار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور الَّتي يعجز وحده عن دركها»[2].

وبناءً عليه؛ فإنَّ العلوم الشَّرعية علومٌ منهجيَّةٌ عمليَّة، وليست علومًا جافَّة، ومن تطلَّب منها ما يستعين به على عيش الحياة الهنيئة، أمكنه أن يستخلص منها ما يستثمره، فهي لم توضع موادًّا هكذا كالقانون لا تصلح لغير ما وضعت له، بل فيها من المناسبات والفوائد والعظات ما لو استثمره المؤمن في حياته وأيَّامه؛ دينًا و دنيا، لعاش على أطيب حال.

ولأجل ذلك كلِّه، انتَخبتُ ـ ممَّا تصيَّدتُ وجمعت ـ نُبذًا يسيرةً من قواعد المحدِّثين، لكن من زاوية استعمالها في الخارج على ما ذكرت، لنرى عن قرب ما يمكن أن تعود به على تصرُّفات المؤمن من المسرَّة والسَّداد، والله الموفّق.

(2) «المجموع» (3/338).



○ من القواعد المقرَّرة: «لا يصحُّ المتن حتَّى يصحَّ السَّند».

دليلها عند القوم: اشتراطهم لصحَّة الحديث اتِّصالَ السَّند؛ تحرُّزًا من وجود فجوة فيه، لاحتمال أن يملأها غيرُ مَرضيِّ الرِّواية، وأن يكون رواتُه ـ الحديث ـ على قدرٍ من العدالة والضَّبط، تطمئنُّ معها النَّفس إلى إتقانه وأمانته.

ولم أشأ تحديد مرجع بعينه؛ لأنَّ كلَّ كتب «المصطلح» مرجع لهذه القاعدة، وأيًّا منها نشر الطَّالب بين يديه ليرى خبرها أسعفه طلبه.

أمَّا ما يستفاد منها:

فهو أنَّ الإنسان مهما نُقل إليه من الأخبار المتعلِّقة ببعض النَّاس، مهما كان شأنهم، علماء أو دعاة، أو حتَّى آحاد النَّاس، فعليه أن لا يهجم على التَّصديق حتَّى يستوثق من الخبر، اللَّهمَّ إلاَّ أن يكون المخبِر عدلاً على الصِّفة الَّتي ذكر الله ورسوله ﷺ، فيقبل منه، لكن ينظر فيه ـ مع ذلك ـ إلى جهةٍ أخرى ستأتي في القاعدة التَّالية.

فعلى العبد المؤمن أن يتثبَّت من المنقول إليه، ويتأكَّد من صحَّته، وأنَّه ليس خطأً في نفس الأمر.

وممَّا جرت به العادة عند البعض، أنَّهم إذا نقل إليهم شيءٌ عن بعض النَّاس، سارعوا إلى التَّصديق به والقبول له، متذرِّعين بدعوى أنَّ ذلك الشَّخص المُخبر عنه، ليس بعيدًا عنه أن يفعل ذلك، أو ليس مستحيلاً صدور ذلك منه، فيصيرون يستدلُّون على صحَّة ما نُقل إليهم لا بصدق من أخبرهم، بقدر ما يبنون ذلك على كونهم لهم سبق معرفة به، تؤكِّد أنَّ وقوعه فيما وقع فيما نُقل لهم عنه واردٌ جدًّا؛ لأنَّه لا يتحاشى ذلك.

وهاهنا يقال: على المؤمن أن يتَّقي الله سبحانه في خلقه، وأن يستفيد من هذه القاعدة في ضبطه للنُّقولات الَّتي تصله، وأن يجعل نفسه مكان هذا الَّذي تُنقل له الأخبار عنه، أتُراه لو كان مكانه أكان يرضى؟!

فخيرٌ له أن يأتي إلى النَّاس الَّذي يحبُّ أن يؤتى إليه[3].

(3) كما في الحديث: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ...» رواه مسلم (1844).

○ **القاعدة الثَّانية: «لا يلزم من صحَّة السَّند صحَّة المتن».**

دليلها: اشتراط علماء الحديث شرطين لصحَّة المتن زائدين على شروط صحَّة السَّند الثَّلاثة الَّتي مرَّت في القاعدة الأولى.

والشَّرطان هما: عدم الشُّذوذ وانتفاء العلَّة[4].

ومعنى هذا أنَّ السَّند قد تتوفَّر فيه شروط الصِّحَّة فيصحُّ، لكنَّ شروط صحة المتن لا تتوفَّر فيبقى ضعيفًا مردودًا، وليست صحَّة السَّند بلازم منها صحَّة المتن.

يستفاد من هذه القاعدة العظيمة: أنَّ المؤمن قد يصحُّ عنده بنقل الثِّقة أنَّ فلانًا من النَّاس سمعنا في بيته مزمارًا، أو دفًّا أو غناءً، أو رأيناه مع امرأة في طريق على هيئة تُشعر بالرِّيبة...

فنقول له:

ليكن الخبر المنقول إليك صحيحٌ سندُه، وثقةٌ مُخبره، أيستلزم أن تكون هيئته الَّتي نُقل عليها واقعةً على صحَّة ما يُرى من ظاهر الخبر من التُّهمة؟.

إذ ليس يلزم من صحَّة الخبر صحَّة ما فُهم منه.

وليزداد الأمر وضوحًا، أطبِّقه بين يديك على ما عرضتُ من الأمثلة فأقول:

قد يكون المزمار الَّذي سمعه النَّاقل الثِّقة في بيت أخيك؛ واقعًا من بعض ولده أو خدمه أو غيرهم، وليس يلزم أن يكون ـ هو ـ حاضرًا وسطَهم، يرى سفهَهم، فيقبل منهم ذلك و لا يغيِّره.

وحسن الظَّنِّ يقضي بأن تعامل من ثبتت عندك عدالتُه وديانتُه من إخوانك بلازمها، وهو البراءة، وخطأ في العفو وحسن الظَّنِّ، خيرٌ من الخطأ في العقوبة وإساءة الظَّنِّ.

ثمَّ ألم تسمع إلى قول معاذ رضي الله عنه يقرِّر هذا المبدأ بقوَّة حين قال: «ما علمنا عليه إلاَّ خيرًا» ردًّا على من نعت فلانًا من الصَّحابة أنَّه لمَّا تخلَّف عن الرَّكب معهم للغزو، إنَّما منعه على حدِّ قوله النَّظر إلى عِطْفَيْه؟

ثمَّ انظر إلى قصَّة شعبة رحمه الله لمَّا قدح في المنهال بن عمرو بأنَّه سمع في داره صوت الطُّنبور ـ المزمار ـ، فلم يقبل منه علماء الحديث ذلك[5].

قلت: ولا أريد أن أفترض الأسوأ، وأقول: ليكن هذا الرَّجل ممَّن يرى ـ تأوُّلاً لا تشهِّيًا ـ جواز الغناء والمعازف، قال الذَّهبي في ترجمة إبراهيم بن سعد: «من أئمَّة العلم وثقات المدنيِّين، كان يجوِّز سماعَ الملاهي ولا يجد دليلاً ناهضًا على التَّحريم، فأدَّاه اجتهاده إلى الرُّخصة، فكان ماذا؟!»[6].

ولمَّا اختصر القولَ فيه الحافظُ رحمه الله في «التَّقريب» قال: «ثقةٌ حجَّة، تُكُلِّم فيه بلا قادح...»[7].

قلت: أمَّا أدلَّة تحريم المعازف مصحوبةً بغناء أو بدونه، فأكثر وأقوى من أن تكون غيرَ ناهضة حجَّة على التَّحريم، إنَّما لم تنهض دليلاً عنده هو رحمه الله ـ أقصد إبراهيم بن سعد ـ فكان ذلك مانعًا من الخوض في القدح فيه، بعد أن تبيَّنت عدالتُه وديانتُه، وأنَّه لم يأت ما أتى عن هوى صادف شهوة، كما هو حال البعض، نسأل الله السَّلامة.

والأمر هنا شبيهٌ بما اشتهر عن كثيرٍ من أهل الكوفة، من تجويزهم شرب النَّبيذ، على ما هو معروف في محلِّه من كتب الفقه لا سيما الحنفيِّ منها، فقد أشار الشَّيخ المعلِّمي رحمه الله إلى أنَّهم مع ما كانوا عليه من تجويز ذلك إلاَّ أنَّهم كانوا أكثر تديُّنًا لله من أن يشربوه حتَّى يسكروا، بل كان منهم من لا يتعاطاه ألبتَّة، إنَّما كان يشرب منهم من كان يرى حلَّه بالقدر الَّذي لا يذهب به عقله.

ولهذا تجد في تراجم وأخبار كثير من أهل العلم، إذا ذهبوا إلى القول بحلِّ شيءٍ ما، ممَّا في حلِّه خلافٌ، ينأون بأنفسهم عن ملابسته وإتيانه، حفاظًا على مروءاتهم، وكان الأمر عندهم ينتهي عند حدِّ الإفتاء بما يعتقدون أنَّ الصَّواب فيه، وأنَّ حكم الله يقتضي ما ذهبوا إليه.

ونفس الأمر يقال هنا فيمن رأى أخًا له أو أحد معارفه مع امرأة؛ هو ـ أعني الرَّائي ـ لا يعرفها، ورأى كأنَّ اللِّقاء بينهما كان على هيئة تبعث الرِّيبة في نفسه، فنقول له: لعلَّ من رأيتها معه إحدى محارمه، صادف أن لقيها في طريق فكلَّمها وكلَّمته، وأين الضَّير في هذا، إنَّ المؤمن من شدَّة ما يخشى أن يظنَّ النَّاسُ به سوءً يحدث من التَّصرُّفات والحركات ما يريد من خلاله أن

(4) وهما ليس خاصَّين بالمتن، بل ينسحبان على السَّند أيضًا.

(5) «فتح المغيث» للسَّخاوي (1/302).

(6) «الرُّواة الثِّقات المتكلَّم فيهم بما لا يوجب ردَّهم» (37).

(7) «تقريب التَّهذيب» (202).

يغطِّي على نفسه، فيظنُّ الظَّانُّ ويحسب الرَّائي، أنَّ ذلك التَّلجلج منه دليل شبهةٍ أكيدة، حينها يقال له: بئس الظَّنُّ ظنُّك بمن تعلم أنَّـه عندك على خير وفضل، نعم ما نقل لـك النَّاقل عنه من أنَّه رأى؛ صدقٌ، لكن في حدود ظاهر ما رأى، وليس ذلك وحده دليلاً كافيًا علـى التُّهمة والجرم، لاحتمال المحرميَّـة كما مرَّ، ويكفينا أنَّ هـذا حصـل مع رسـول الله ﷺ نفسه، لمَّـا كان يحدِّث بعض أزواجه في سكَّة من السِّكك، فرآه صحابيَّان فانسلاَّ عن الطَّريق، فلمَّا رأى ذلك منهما قال: «**عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بنت حيي**».

أعـود فأقـول: لا يستلزم إذن مـن صحَّة النَّقـل صحَّته على الظَّاهـر الَّـذي تفهمـه لأوَّل وهلـةٍ منـه، وعلـى الطَّريقـة الَّتـي استوعبتَـه وأدركتَه عليها، فعلى المـرء أن يوجِّه تفكيره، مستنيرًا مـن هذه القاعدة العظيمة، بطريقةٍ تجعله أكثر حسنًا للظَّنِّ بمن هـم أهله من النَّاس على اختلاف مشاربهـم، ولئن هو فعل أراح واسـتراح، وكفى نفسه كثيرًا من الغليـان والحنق الَّذي يجده في صدره تجاه أخيه.



○ القاعدة الثَّالثة: إيراد الجرح الغليظ بالعبارة اللَّيِّنة.

دليلهـا ما ذُكر عن البخاري رَحِمَهُ اللهُ، فإنَّه كان يقول في الرَّاوي: «فيـه نظر» يريد به القدح الشَّديـد، و كان يقول في الرَّاوي الَّذي يكذِّبه أحمدُ بنُ حنبـل رَحِمَهُ اللهُ: «فلانٌ كان أحمد يتكلَّم فيه»، وذكر السَّخـاوي في «الإعـلان بالتَّوبيـخ» قـال: «جاء عن المـزني قال: سمعنـي الشَّافعـيُّ يومًـا وأنـا أقول: فـلانٌ كذَّاب، فقـال لي: يا إبراهيـم؛ اكسُ ألفاظَك أحسنَها، لا تقل كذَّاب، ولكن قل: حديثه ليس بشيء».

ومنــه ما جاء مـن قول الذَّهبي رَحِمَهُ اللهُ في «ميـزان الاعتدال»[8] ترجمة أبان بـن جبلة الكوفي: «قال البخـاري: «منكر الحديث»، قـال الذَّهبي: «ونقل ابـن القطَّان أنَّ البخاريَّ قـال: كلُّ من قلت فيـه منكر الحديـث فلا تحلُّ الرِّواية عنه» وكـذا قاله في ترجمة سليمان بن داود اليمامي[9].

وفي ترجمـة عبـد الله بـن داود الواسطـي التَّمَّـار قـال فيه البخـاري: «فيـه نظـر»، قـال الذَّهبـي رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يقول هـذا إلاَّ فيمن يتَّهمـه غالبًا»[10] وفي ترجمة عثمان بـن فائد القرشي قال البخـاري: «في حديثـه نظر»، قـال الذَّهبي: «وقـلَّ أن يكون عند البخاريِّ رجل فيه نظر إلاَّ وهو متَّهم»[11].

وروى مسلـمٌ في مقدِّمة «صحيحه» عن أيُّـوب السَّختياني أنَّه ذكـر رجلاً فقال: «لم يكـن بمستقيم الحديث»؛ قـال السَّخاوي: «كنَّى بهذا اللَّفظ عن الكذب».

فيُؤخذ من هذه القاعدة اختيار أنسب الألفاظ في نعت النَّاس حتَّـى في مواطن القـدح، فضلاً عن مواطن المناظـرة والمساجلة والمناصحـة، ليكـون أحـرى أن يقبلهـا مـن القـادح. لا سيما إن كان مصيبًـا. مـن لا يحـبُّ الكلام في المقدوح فيـه، من تلامذته ومريديـه، وبذلك يكون المرء. وقد راعـى منطقَه وحرس لسانه، وقـوَّم كلماته فكساها أحسنَها. أدَّى الغرض من النَّصيحة على وجهيها؛ تبليغًا وثمرةً.

نعـم؛ لقد شدَّد في بعض العبارات والإطلاقات بعضُ من كان

(8) (6/1).
(9) «ميزان الاعتدال» (202/2).
(10) «ميزان الاعتدال» (416/2).
(11) نفس المرجع (52/3).

لـه مقامٌ مـع الله، وعبادةٌ و تألُّه، كأحمد بـن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الشَّيء الَّـذي يمنع في الغالب أن يكـون ذلك منه وممَّن هو مثله، إلاَّ على سبيل النَّصيحة لله؛ بالتَّنفير من الَّذي تكلَّموا فيه بتلك الطَّريقة، حتَّى لا يأنس إليه من يُخشى عليه الاغترار.

وإذا كان الرَّجـل كذَّابًا حقيقةً؛ فمـا ظلمه ولا لمزه من وصفه بالكـذب الَّذي هو واقعُ حاله، وإنَّما المـرادُ الإشارة إلى أنَّ جنوحَ من انصـرف عن اللَّفظ الصَّريح إلى الخفيف منه، كان مراعاةً لمـا ذكرنـاه، وليس القصد أنَّ مـن لم يفعل ذلك فقـد اشتدَّ أو استبدَّ.

ولسـت أريد في هذا المقام من الاعتصار أن تخامر الهواجسُ صدرَ أحد فيظنَّ أنِّي أحاكم بين منهجين أو أفاضل بين طريقتين؛ لأنَّ المدرسـة واحـدة، وكلٌّ آخـذٌ منها بشعبة خـير وسهم فضل، وإنَّمـا القصد هو الإرشاد إلى معنـى قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: 53] للدِّلالـة علـى أنَّ كسـاءَ الألفاظ أحسنَها أقربُ إلى الإحسان والسَّلامة.

وفيه أنَّ على المرء ألاَّ يستعجل عيوب إخوانه، فيقطع بالمظنون منهـا، أو يختـرع بسوء فهم أو ظنٍّ ما ليس موجـودًا منها أصلاً، وهـذا أشرُّ، ودلائل الشَّرع قائمةٌ على منع التَّجسُّس على أعراض النَّـاس، والتَّسميع بها من غير داعٍ شرعيٍّ جاء فيه الإذن من الله أو رسوله ﷺ.

بـل الكريم هـو الَّذي يتغافـل ويسـتر، أمَّا من يهـوى الوقوع في الأعراض ولـه به ولعٌ وفـرحٌ، فيُخشى عليـه أن يكون مشمولاً بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [النور: 19].

ومـا يعين علـى تقبُّل الخطأ من أخيـك ـ التَّقبُّل الَّذي يجعلك **كريمًا** في إصلاحـه ـ أن تعلـم أنَّ العصمـة للأنبيـاء والرُّسـل فحسـب، وأنَّ ابن آدم خطَّـاء لا محالة، وما من سبيل له للخروج عـن ذلك، ولذلك لمَّا اشترط علمـاء الحديث في الرَّاوي أن يكون عدلاً مستقيمَ السِّيرة، طيِّبَ السَّريرة، بعيدًا عن أسباب الفسوق، نبَّهـوا إلى أنَّ اشتراطهـم لذلـك ليس معناه طلـب العصمة من الـرَّاوي، وأن لا يقـع منه الخطـأ والمعصية، فإنَّ هـذا تكليفٌ بما لا يطـاق، قال ابن حبَّان: «والعدالـة في الإنسان هو أن يكون أكثر أحواله طاعة الله لأنَّا متى ما لم نجعل العدل إلاَّ من لم يوجد منه معصية بحال أدَّانا ذلك إلى أن ليس في الدُّنيا عدل، إذ النَّاس لا تخلو أحوالهم من ورود خلل الشَّيطان فيها»[12].

نعـم؛ ليـس معنـى هـذا أن يسكت المـرء عن الخطـأ الواقع مطلقًا، فإنَّ هذا مضرٌّ بدين النَّاس، وإنَّما الحلُّ:

ـ أن لا تحجِّـم الخطأ فوق حجمـه، فتلبسه لباس الكبائر وهو مـن الصَّغائر، أو تجعله من البدع وهو من المعاصي، وإنَّما تضعه في الخانة الموافقة.

ـ أن تسلـك في النُّصـح والبيـان المسالـك الشَّرعيَّة، مـن محاجحة في ستر، ومجادلة في لين، حتَّى إذا ركب رأسَه ولم يقم للنَّصيحة حقَّها، وتعدَّى ضررُه **نفسَه**، كانت صيانة الدِّين مقدَّمة على عرضه.

هـذه لفتاتٌ ليـس إلاَّ، والأمر يحتاج إلى بيـان أوسع لا تسعه هـذه الوريقـات، لكي لا يفهمهـا قارئها على تفـكُّك، يفرِّق به ما أردتُه من وصل نظامها، فيبيد خضراءَها وغضراءها، ولأجل أنَّ الأمر طويل الذَّيل، وجدتني مضطرًّا إلى أن أرمز طلبًا لاختصار يناسـب حجم المقالة، ولا يثقل على القارئ، وتكون الإشارة باعثةً له على ولوج هذا الباب بنفسه.

ولـن يتهيَّأ الأمر ويستقيـم حتَّى يفحص المرءُ مـا يقرأ بعين غير مضطربة، وحينها يـبرحُ الغموضُ وتتَّضح المسالكُ، ويصير ما كان صعبًا غامضًا؛ سلسًا دانيًا.

والأمر من قبل ومن بعد بيد الله وحده.

(12) «صحيح ابن حبَّان» (1/151).




دار الفضيلة

صدر حديثا عن


شرح
الأرجوزة الميئية
في ذكر حال أشرف البرية
للعلامة ابن أبي العز الحنفي
المتوفى سنة ٧٩٢ هـ
شرحها
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
دار الفضيلة


نيل المنح
بشرح إملاء الشيخ ابن باديس
في علم المصطلح

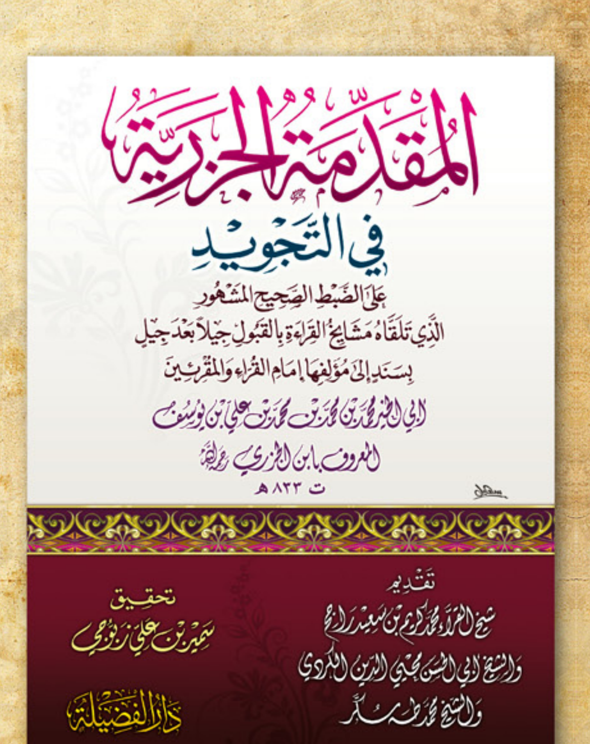

إعداد
محفوظ بن عامر
تقديم
فضيلة الشيخ الدكتور/ أبي عبد الله محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر
دار الفضيلة


الذكر والدعاء
في ضوء الكتاب والسنة
بقلم
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر
دار الفضيلة


القواعد الحسان
المتعلقة بتفسير القرآن
تأليف
الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي
رحمه الله تعالى
١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ
اعتنى به
خالد بن عثمان السبت
دار الفضيلة

ترقبوا..







البريد الإلكتروني: darelfadhila@maktoob.com   الموقع على الشبكة العنكبونية: www.rayatalislah.com

تزكية وآداب



في نزول المطر..
فوائد وعبر

حسن أيت علجت

إنَّ نُزُولَ المَطَرِ مِنْ نعَمِ الله العُظْمَى وآلائه الكُبْرَى الَّتي امْتَنَّ اللهُ عز وجل بها على عبَاده، وذلك لما فيه مِنَ المصالح الَّتي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، والمَنَافِع الَّتي لا تُحْصَرُ ولا تُسْتَقْصَى.

ذلك بِأنَّ المَاءَ قِوَامُ الحَيَاة، كَمَا قالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء :30]. فَبِالمَاءِ حَيَاةُ الأَرْضِ بالنَّبَات، كما قالَ سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾ [سورة النحل]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩)﴾ [سورة الفرقان].

الغَيثُ من آثَارِ رحْمَةِ الله عز وجل

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَخْبَرَ اللهُ عز وجل أنَّ نُزُولَ الغَيْث مِنْ آثَارِ أَعْظَم صفَاته وأَوْسَعهَا، ألاَ وهيَ صِفَةُ الرَّحْمَةِ، فقال سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ [الروم : 46]، أيْ: مُبَشِّرَات بِالْغَيْث، وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم : 50]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى : 28].

من مَواطنِ إجابَةِ الدُّعَاءِ نُزولُ الغَيْث

ومِنْ كَمَالِ رحْمَةِ الله عز وجل أَنْ جَعَلَ الدُّعَاءَ مُسْتَجَابًا عنْدَ نُزُول الغَيْث، فعن سَهْلِ بْنِ سَعْد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ثِنْتَان لا تُرَدَّان. أو قلَّما تردَّان.: الدُّعَاءُ عِنْدَ النِّدَاءِ وَعِنْدَ الْبَأْسِ حِينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَحْتَ المَطَرِ**»[1]، وروى الإمام الشافعي رحمه الله في «الأمِّ» (1/223. 224) عن مكحول الدِّمشقيِّ مرسَلاً: «**اطْلُبُوا إجَابَةَ الدُّعَاء عِنْدَ الْتِقَاء الجُيُوش وإقَامَة الصَّلاَة ونُزُولِ المَطَر**»[2].

شُكْرُ هذه النِّعْمَة ونِسْبَتُها إلى اللهِ عز وجل

إذَا عَلِمْنَا هذا، فإنَّ النَّاسَ إزَاءَ هذه النِّعْمَة العَظيمَة صِنْفَانِ: شَاكِرٌ تَقِيٌّ، وكَافِرٌ شَقِيٌّ، وهذا كَمَا هو الحَالُ بالنِّسْبَةِ لِسَائِرِ النِّعَم الَّتي يُنْعِمُها اللهُ عز وجل على عِبَادِهِ،

(1) رواه أبو داود (2540)، والحاكم (2534)، انظر: «صحيح الجامع» (3078)، و«صحيح أبي داود الأصل» (7/294).

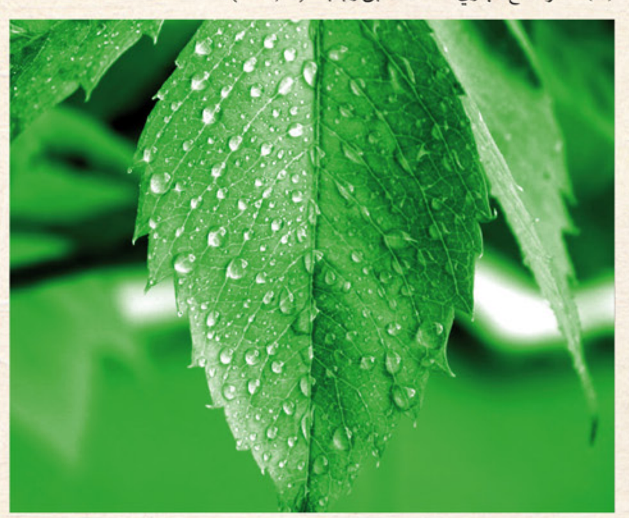
(2) حسن لغيره: وهو مخرَّجٌ في «الصَّحيحة» (1469).

كما قال ـ سبحانه ـ عن الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان]، ويُبَيِّنُ هذا ما ثبت في «الصَّحيحَيْن» عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ[3] فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قالوا: اللهُ ورسُولُهُ أَعْلَمُ؛ قال: «**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ: فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا؛ فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ**».

قال الإمامُ الخَطَّابيُّ رحمه الله: «النَّوْءُ وَاحِدُ الأَنْوَاء، وهي الكَوَاكِبُ الثَّمَانِيَةُ والعِشْرُون الَّتِي هِيَ مَنَازِلُ القَمَر، كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ القَمَرَ إِذَا نَزَلَ بِبَعْضِ تِلْكَ الكَوَاكِبِ مُطِرُوا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ سُقُوطَ المَطَرِ مِنْ فِعْلِ اللهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَأَبْطَلَ قَوْلَهُمْ»[4].

وقد أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ نِسْبَةَ المَطَرِ إلى النَّوْءِ مِنْ أُمُورِ الجاهليَّةِ الَّتِي لا يَتْرُكُها بَعْضُ أُمَّتِه، فقد روى مسلمٌ (2203) عن أبي مالك الأشعريِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ**».

(3) أي: مَطر، والعَرَبُ تُسَمِّي المطرَ سماءً؛ لنُزُوله من السَّماء «نهاية».
(4) انظر «فتح الباري» للحافظ ابن رجب: (633/6).



أَذْكَارُ نُزُولِ المَطَرِ

وممَّا يُسْتَفَادُ من حديث زَيْد بْن خالد الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه الآنف الذِّكْر: مَشْرُوعيَّةُ قَوْلِ العَبْدِ عِنْدَ رُؤْيَةِ المَطَر: «**مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِه**»، ومِنْ بَابَتِه ـ أيضًا ـ ما رَوَاهُ أحمدُ (24144)، والبخاريُّ (1032) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى المَطَرَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**».

صِلَةُ نُزُولِ المَطَرِ بِنُزُولِ القُرآنِ

إِذَا تَقَرَّرَ هذا؛ فإِنَّ نِعْمَةَ نُزُولِ المطرِ الَّذِي بِه حَيَاةُ النَّبَاتِ والحَيَوان، يُذَكِّرُنا بِنِعْمَةٍ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْهَا وهي نُزُولُ القُرآنِ العَظِيمِ الَّذِي به حَيَاةُ القُلُوبِ بالعِلْمِ والإيمَان.

ذَلِكَ بِأَنَّه ممَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْه العُقَلاَءُ أَنَّ الحَيَاةَ نَوْعَان: حياةُ الأَجْسَامِ والأَشْبَاح، وحياةُ القُلُوبِ والأَرْوَاح، فَهُمَا حَيَاتَانِ: حَيَاةُ البَدَنِ بالرُّوح، وَحَيَاةُ الرُّوحِ وَالقَلْبِ بِالعِلْمِ والإِيمَان، «فَإِنَّ الجَاهِلَ مَيِّتُ القَلْبِ والرُّوحِ وإِنْ كَانَ حَيَّ البَدَنِ، فَجَسَدُهُ قَبْرٌ يَمْشِي بِه عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، وقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: 80]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [فاطر]، شَبَّهَهُم فِي مَوْتِ قُلُوبِهِم بِأَهْلِ القُبُور، فَإِنَّهُم قَدْ مَاتَتْ أَرْوَاحُهُم، وصَارَتْ أَجْسَامُهُم قُبُورًا لَهَا، فَكَمَا أَنَّهُ لا يَسْمَعُ أَصْحَابُ القُبُور، كَذَلِكَ لا يَسْمَعُ هَؤُلاَء.

وإِذَا كَانَتِ الحَيَاةُ هِيَ الحِسُّ والحَرَكَةُ ومَلْزُومُهُمَا، فَهَذِه القُلُوبُ لَمَّا لَمْ تُحِسَّ بالعِلْمِ والإيمَان، ولَمْ تَتَحَرَّكْ لَهُ؛ كَانَتْ مَيِّتَةً حَقِيقَةً، ولَيْسَ هَذَا تَشْبِيهًا لِمَوْتِهَا بِمَوْتِ البَدَنِ؛ بَلْ ذَلِكَ مَوْتُ القَلْبِ والرُّوح، كَمَا قِيلَ:

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لأَهْلِه
وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ
فَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ»[5]

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَمَّى اللهُ عز وجل الوَحْيَ رُوحًا لتَوَقُّفِ الحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: 2]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: 15]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: 52]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 24]، فأَخْبَرَ سبحانه وتعالى أَنَّ حَيَاتَنَا إِنَّمَا هِيَ باسْتِجَابَتِنَا لِمَا يَدْعُونَا إِلَيْهِ اللهُ عز وجل، والرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم مِنَ العِلْمِ والإِيمَانِ، فَعُلِمَ أَنَّ مَوْتَ القَلْبِ وهَلاكَهُ بِفَقْدِ ذَلِكَ[6].

ولَمَّا كان القُرآنُ العَظِيمُ تَحْيَا به القُلُوبُ، والمطرُ تَحْيَا به الأَرْضُ الجُدُوبُ؛ جاءَتْ هاتَانِ النِّعْمَتَانِ مَقْرُونَتَيْنِ فِي كَلامِ الله عز وجل، وكَلامِ رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لِمَا بَيْنَهُما من التَّشابُهِ والمِثْلِيَّةِ في النَّفْعِ والإِصْلاحِ.

فمن ذلك قولُه سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد]، قال الإمام ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (8/21) في هذه الآية الأخيرة: «فيه إِشَارَةٌ إلى أَنَّهُ ـ تعالى ـ يُلِينُ القُلوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا، وَيَهْدِي الحَيَارَى بَعْدَ ضَلَّتِهَا، وَيُفَرِّجُ الكُرُوبَ بَعْدَ شِدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الأَرْضَ المَيْتَةَ المُجْدِبَةَ الهَامِدَةَ بالغَيْثِ الهَتَّانِ الوَابِلِ، كَذَلِكَ يَهْدِي القُلُوبَ القَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ القُرْآنِ والدَّلائِلِ، ويُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لا يَصِلُ إِلَيْهَا الوَاصِلُ».

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله في هذه الآية في «لطائف المعارف» (346): «فَفِيهِ إِشَارَةٌ إلى أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِوَابِلِ القَطْرِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ القُلُوبِ المَيْتَةِ القَاسِيَةِ بالذِّكْرِ».

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد].

قال ابن القيِّم رحمه الله في «الوابل الصَّيِّب» (113 ـ ط: بشير عيون): «شَبَّهَ الوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِحَيَاةِ القُلُوبِ، بِالمَاءِ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ، وشَبَّهَ القُلُوبَ الحَامِلَةَ لَهُ بِالأَوْدِيَةِ الحَامِلَةِ للسَّيْلِ؛ فَقَلْبٌ كَبِيرٌ يَسَعُ عِلْمًا عَظِيمًا، كَوَادٍ كَبِيرٍ يَسَعُ مَاءً كَثِيرًا، وَقَلْبٌ صَغِيرٌ كَوَادٍ صَغِيرٍ يَسَعُ عِلْمًا قَلِيلاً، فَحَمَلَتِ القُلُوبُ مِنْ هَذَا العِلْمِ بِقَدَرِهَا، كَمَا سَالَتِ الأَوْدِيَةُ بِقَدَرِهَا.

وَلَمَّا كَانَتِ الأَوْدِيَةُ وَمَجَارِي السُّيُولِ فيهَا الغُثَاءُ، وَنَحْوُهُ مِمَّا يَمُرُّ عَلَيْهِ السَّيْلُ، فَيَحْتَمِلُهُ السَّيْلُ، فَيَطْفُو عَلَى وَجْهِ المَاءِ زَبَدًا عَالِيًا يَمُرُّ عَلَيْهِ مُتَرَاكِبًا، وَلَكِنْ تَحْتَهُ المَاءُ الفُرَاتُ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الأَرْضِ، فَيَقْذِفُ الوَادِي ذَلِكَ الغُثَاءَ إِلَى جَنْبَتَيْهِ حَتَّى لا يَبْقَى منه شَيْءٌ، ويَبْقَى المَاءُ الَّذِي تَحْتَ الغُثَاءِ يَسْقِي اللهُ تعالى بِهِ الأَرْضَ، فَيُحْيِي بِهِ البِلادَ والعِبَادَ والشَّجَرَ والدَّوَابَّ، والغُثَاءُ يَذْهَبُ جُفَاءً؛ يُجْفَى وَيُطْرَحُ عَلَى شَفِيرِ الوَادِي.

فَكَذَلِكَ العِلْمُ والإِيمَانُ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنَ السَّمَاءِ فِي القُلُوبِ، فَاحْتَمَلَتْهُ، فَأَثَارَ مِنْهَا ـ بِسَبَبِ مُخَالَطَتِه لَهَا ـ مَا فِيهَا مِنْ غُثَاءِ الشَّهَوَاتِ وزَبَدِ الشُّبُهَاتِ البَاطِلَةِ، فَطَفَا فِي أَعْلاهَا، واسْتَقَرَّ العِلْمُ والإِيمَانُ والهُدَى فِي جَذْرِ القَلْبِ، وهو أَصْلُهُ ومُسْتَقَرُّهُ، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**نَزَلَ الإيمانُ في جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ**» رواه البخاري من حديث حُذَيْفَةَ، فَلا يَزَالُ ذَلِكَ الغُثَاءُ والزَّبَدُ يَذْهَبُ جُفَاءً، ويَزُولُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَزُولَ كُلُّهُ، وَيَبْقَى العِلْمُ النَّافِعُ والإِيمَانُ الخَالِصُ فِي جَذْرِ القَلْبِ يَرِدُهُ النَّاسُ فَيَشْرَبُونَ ويَسْقُونَ وَيُمْرِعُونَ».

ومن ذلك ـ أيضًا ـ قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة]، وَهَذَا مَثَلٌ مُطَابِقٌ لِلصَّيِّبِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ عليه السلام مِنْ عِنْدِ رَبِّ العَالَمِينَ تبارك وتعالى عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِيُحْيِيَ بِهِ القُلُوبَ والوُجُودَ أَجْمَعَ، اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يُقَارِنَهُ مِنَ الغَيْمِ والرَّعْدِ والبَرْقِ وهو الوَعِيدُ والعُقُوبَاتُ الَّتِي حَذَّرَ اللهُ بِهَا مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، أَوْ مَا فِيهِ مِنَ الأَوَامِرِ الشَّاقَّةِ عَلَى النُّفُوسِ الَّتِي هِيَ بِخِلافِ أَهْوَائِهَا، فَهِيَ كَالظُّلُمَاتِ والرَّعْدِ والبَرْقِ الذي يُقَارِنُ الصَّيِّبَ مِنَ المَاءِ، فأَمَّا المُؤْمِنُ العَاقِلُ فَيَنْظُرُ إلى مَا فيه من النَّفْعِ والجُودِ، وأما المنافِقُ الجَاهِلُ فيَنْظُرُ إلى ما

---

(5) عن «مدارج السَّالكين» للإمام ابن القيِّم (262/3) بتصرُّف يسير.

(6) عن «إعلام الموقعين» (851/1)، و«إغاثة اللَّهفان» (22/1) كلاهما للإمام ابن القيِّم رحمه الله.

فيه من البُرُوقِ والرُّعُود[7].

ونَظيرُ هـذا في السُّنَّة المُطَهَّرة ما ثَبَتَ في «الصَّحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْم، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِير أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَت المَاءَ فَأَنْبَتَت الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ؛ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دِين الله، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ؛ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «جامع المسائل» (125/1): «فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ في هذا الحديث مَثَلَ ما جَاءَ بِهِ بالمَاءِ الَّذي يَنْزِلُ عَلَى الأَرْض، وَشَبَّه القُلُوبَ بالأَرْض، والهُدَى والعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى بالمَاءِ الَّذي نَزَلَ عَلَى الأَرْض، وَجَعَلَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَقْسَام: قِسْمًا سَمِعُوا وَفَقِهُوا وَعَلِمُوا، وَقِسْمًا حَفِظُوهُ وَبَلَّغُوا غَيْرَهُم؛ فَانْتَفَعُوا به، وَقِسْمًا لا هَذَا ولا هَذَا».

وقال - أيضًا - في نفس المصدر (76/2): «فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ مثلَ مَا بَعَثَهُ اللهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْم، مثلُ الغَيْثِ الَّذي تَشْرَبُهُ الأَرْضُ، فَتُخْرِجُ فُنُونَ الثَّمَرَات، وتُمْسِكُهُ أَرْضٌ لِيَنْتَفِعَ به النَّاسُ، وأَرْضٌ ثَالِثَةٌ لا تَنْتَفِعُ بِشُرْبِه، وَلا تُمْسِكُهُ لِغَيْرِهَا، فَتَبَيَّنَ أَنَّ القُلُوبَ تَشْرَبُ مَا يُنْزِلُهُ اللهُ مِنَ الإِيمَانِ والقُرْآنِ وذَلِكَ شَرَابٌ لَهَا، كَمَا أَنَّ المَطَرَ شَرَابٌ للأَرْضِ، والأَرْضُ تَعْطَشُ وتَرْوَى، كَذَلِكَ القَلْبُ يَعْطَشُ إلى مَا يُنْزِلُه اللهُ، ويَرْوَى به، وهو - سبحانه - الَّذِي يُطْعِمُهُ هَذَا الشَّرَابَ».

وَمِنْ ذلك - أَيْضًا - ما جَاءَ في دُعَاءِ كَشْفِ الهَمِّ والحُزْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُود رضي الله عنه مرفوعًا: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِه نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي...**» الحديث[8].

قال ابن القيِّم رحمه الله في «الفوائد» (39): «الرَّبِيعُ: المَطَرُ الَّذي يُحْيِي الأَرْضَ، شَبَّهَ القُرْآنَ به لِحَيَاةِ القُلُوبِ بِهِ، وكَذَلِكَ شَبَّهَهُ اللهُ بالمَطَر».

ولَمَّا كان المَلَكُ المُوَكَّل بالوَحْي هو جِبْرِيلُ الأَمِينُ عليه السلام، والمَلَكُ المُوَكَّلُ بالقَطْرِ هو ميكائيلُ عليه السلام، وبِهَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ حَيَاةُ الأَرْوَاحِ والأَبْدَانِ؛ جَمَعَ بَيْنَهُمَا النَّبيُّ ﷺ في دُعَاءِ اسْتِفْتَاح صلاة اللَّيْل، كما جاء في «صحيح مسلم» (1847) عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ النبيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاتَهُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ؛ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**».

قال ابن القيِّم رحمه الله في «مفتاح دار السَّعادة» (87/1): «ذَكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ - تعالى - لجبْرِيل وميكائيلَ وإِسْرَافِيلَ، وهذا - والله أعلم -؛ لأَنَّ المَطْلُوبَ هُدًى يَحْيَا به القَلْبُ، وهؤلاء الثَّلاثَةُ الأَمْلاكُ قَدْ جَعَلَ اللهُ تعالى عَلَى أَيْدِيهِم أَسْبَابَ حَيَاة العِبَاد: أَمَّا جِبْرِيلُ فهو صَاحِبُ الوَحْي الَّذي يُوحِيه اللهُ إلى الأَنْبِيَاء، وهو سَبَبُ حَيَاة الدُّنْيَا والآخِرَة، وأَمَّا ميكَائيلُ فهُوَ مُوَكَّلٌ بالقَطْرِ الَّذي به سَبَبُ حَيَاةِ كُلِّ شَيْء، وأَمَّا إِسْرَافِيلُ فهو الَّذي يَنْفُخُ في الصُّور فيُحْيِي اللهُ المَوْتَى بنَفْخَتِه؛ فإذا هُمْ قِيَامٌ لِرَبِّ العَالَمِينَ».



صِلَةُ نُزول المطَرِ بالبَعْث والنُّشُور

ومِنَ الأُمُور الَّتي يُذَكِّرُنَا بها نُزولُ المطَر: إِثْبَاتُ المَعَاد، وقِيَامُ النَّاس لرَبِّ العَالَمين؛ ذلك بأَنَّ اللهَ عز وجل اسْتَدَلَّ في كِتَابه الكَريم على إِحْيَاءِ المَوْتَى، وإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قُبُورهم للحِسَاب، بِنُزُول المطر الذي يُحْيِي به اللهُ عز وجل الأرضَ المَوَاتَ، ويُخْرِجُ منها سَائِرَ أَنْوَاعِ النَّبَات.

وقد كَرَّرَ - سبحانه - هذا الدَّليلَ مِرَارًا؛ لِصِحَّةِ مُقَدِّمَاته،

(7) عن «الوابل الصَّيِّب» (111) بتصرُّف واختصار.

(8) صحيح: رواه أحمد (3712)، وابن حبَّان (972)، «الصَّحيحة» (199).

تزكية وآداب

وَوُضوح دلالته، وبُعده عن كُلِّ مُعارضة وشُبهة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾ [سورة الروم]، وقوله: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [سورة الروم]، وقوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾ [سورة فاطر]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [سورة فصلت].

فكما أنَّ الله ﷻ يُحيي الأرض بعد موتها بالمطر، فكذلك يُحيي الموتى يوم الحساب، وكما أنَّه سبحانه يُخرج بهذا المطر من الأرض الثمار والأقوات والحبوب، كذلك يُخرج الموتى من الأرض بعد ما غيَّبتهم فيها.

وفي هذا قال الإمام ابن القيِّم في «إعلام الموقِّعين» (139/1): «فدلَّ سُبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحقَّقوه وشاهدوه، على الإحياء الذي استبعدوه، وذلك قياس إحياء على إحياء، واعتبار الشيء بنظيره، والعلَّة الموجبة هي عموم قدرته سُبحانه وكمال حكمته، وإحياء الأرض دليل العلَّة».

من أجل ذلك، فإنَّ الله ﷻ بعد أن ذكر منكري البعث وقولهم: ﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [سورة ق]، قال سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾ [سورة ق].

ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾ [سورة الحج].

ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) ﴾ [سورة طه]، قال الإمام ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (294.293/1): «ولمَّا ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه، نبَّه به على المعاد فقال: ﴿مِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾ [سورة طه]».

ومن عجائب قدرة الله ﷻ أنَّه يُخرج يوم القيامة أجساد الموتى بعد ما بليت، وصارت ترابًا بماء ينزل من السَّماء، فيخرجون كما يخرج النبات، ففي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون**»، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أبيتُ[9]، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيتُ، قالوا: أربعون سنةً؟ قال: أبيتُ، «**ثمَّ يُنزل الله من السَّماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل**».

فتبيَّن ممَّا سبق ذكره أنَّ المطر نعمة عظيمة، وهو من آثار رحمة الله تعالى، ومن الأمور العظيمة التي يُذكِّرنا بها: نزول القرآن، وقيام الناس لربِّ العالمين، وقد جمع الله ﷻ بين هذه الأمور الثلاثة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴾ [سورة الأعراف].

قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله في «إعلام الموقِّعين» (140/1): «فأخبر سُبحانه أنَّهما إحياءان، وأنَّ أحدهما معتبر بالآخر، مقيس عليه، ثمَّ ذكر قياسًا آخر أنَّ من الأرض ما يكون أرضًا طيِّبةً، فإذا أنزل عليها الماء؛ أخرجت نباتها بإذن ربِّها، ومنها ما تكون أرضًا خبيثةً لا تُخرج نباتها إلاَّ نكدًا، أي قليلاً غير منتفع به، فهذه إذا أنزل عليها الماء؛ لم تُخرج ما أخرجت الأرض الطيِّبة.

فشبَّه سُبحانه الوحي الذي أنزله من السَّماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض بحصول الحياة بهذا وهذا، وشبَّه القلوب بالأرض؛ إذ هي محلُّ الأعمال، كما أنَّ الأرض محلُّ النبات، وأنَّ القلب الذي لا ينتفع بالوحي، ولا يزكو عليه، ولا يؤمن به، كالأرض التي لا تنتفع بالمطر، ولا تُخرج نباتها به إلاَّ قليلاً لا ينفع، وأنَّ القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه، وعمل بما فيه، كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر، فالمؤمن إذا سمع القرآن، وعقله وتدبَّره؛ بان أثره عليه، فشُبِّه بالبلد الطيِّب الذي يُمرع ويُخصب، ويحسن أثر المطر عليه، فيُنبت من كلِّ زوج كريم، والمعرض عن الوحي عكسه، والله الموفَّق».

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

(9) معناه: أبيتُ أن أقول في الخبر ما لم أسمعه. «نهاية»



فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في حكم
الجمع بين الجمعة والعصر

السُّؤال:

هل يجوز الجمعُ بين صلاتَيِ الجمعةِ والعصرِ؟ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالأصلُ في الصَّلاةِ وجوبُ أدائها في وقتها المحدَّد لها شرعًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء]، ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ عندما سُئل عن أفضلِ الأعمالِ وأحبِّها إلى الله قال: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»[1]، وقد «أجمع المسلمون على أنَّ الصَّلوات الخمسَ مؤقَّتةٌ بمواقيتَ معلومة محدودة»[2]، غيرَ أنَّه ثبتت في السُّنَّة النَّبويَّة نصوصٌ مرخِّصةٌ لأهلِ الأعذارِ في الجمع بين الظُّهر والعصر، والمغرب والعشاءِ دفعًا للحرج في السَّفَرِ والحضَر، ولم يَرِدْ دليلٌ شرعيٌّ يُجيز جمْعَ العصرِ إلى الجمعةِ مطلقًا: لا تقديمًا ولا تأخيرًا، لا في سفرٍ ولا في حضَر؛ لذلك منعه أكثرُ أهلِ العلم مقرِّرين أنَّ مَن صلَّى الجمعةَ من أهلِ الأعذارِ يجب عليه أنْ يصلِّيَ العصرَ في وقتِها، خلافًا لمن أجاز الجمعَ وهو مذهبُ بعضِ السَّلف، ومذهبُ الجمهورِ أصحُّ وأقوى ما لم يدخلِ المسافرُ الضَّاربُ في الأرضِ مع إمامِ بلدةٍ مرَّ عليها الجمعةَ بنيَّةِ الظُّهرِ قصرًا، فإنَّه. والحالُ هذه. يَسَعُه دون غيرِه أن يجمعَ معها العصرَ ليُتابعَ سفرَه؛ لعدمِ وجوبِ الجمعةِ عليه في سفرِه من جهةٍ، ولأنَّه جمعٌ بين الظُّهرِ والعصرِ من جهةٍ أخرى.

أمَّا مَن عداه ممَّن صلَّى الجمعةَ فليس له أن يجمعَ إليها العصرَ مطلقًا: تقديمًا أو تأخيرًا؛ لعدمِ ثبوتِ ترخيصٍ شرعي يقضي بجوازِه، والمعلومُ أنَّ الأصلَ في العباداتِ التَّوقيفُ؛ فلا يُشرَعُ منها إلاَّ ما ثبت تشريعًا.

هذا؛ والجمعةُ ليستْ بدلاً عنِ الظُّهرِ حتَّى تأخذَ حكمَ المُبْدَلِ منه، وإلحاقُ الجمعةِ بالظُّهرِ قياسٌ مع ظهورِ الفارق؛ ذلك لأنَّ الجمعةَ صلاةٌ منفردةٌ ومستقلَّةٌ، لها خصائصُ تميِّزها عنِ الظُّهرِ من وجوهٍ كثيرةٍ، وكذا عن سائرِ الصَّلواتِ الأخرى، سواء في شروطِها أو أركانِها أو هيئتِها أو ثوابِها وفي يومِها وما يُشْرَع قبلها وبعدها، لذلك لا تُجْمَع الجمعةُ مع أيِّ صلاةٍ قبلها كالفجرِ، ولا صلاةٍ بعدها كالعصرِ، والعلم عند الله تعالى.

(1) متفق عليه: أخرجه البخاريّ (527)، ومسلم (85) من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.
(2) «المغني» لابن قدامة (1/370).

في اشتراط
حكم القاضي لانعقاد الطلاق

السؤال:

هل يُشترط لصحَّةِ وقوعِ الطَّلاقِ حكمُ القاضي؟

الجواب:

الطَّـلاقُ تصـرُّفٌ شرعـيٌّ قوليٌّ، وهـو حقٌّ ملَّكـه اللهُ تعالى للرَّجـلِ خالصًا وجعلـه بيدِه، ويمارسه بعبارتـه وإرادته المنفردةِ تقصُّـدًا لحَلِّ قيدِ النِّكاحِ ومفارقـةِ زوجته إذا وجد ما يدعوه إلى ذلك، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1]، وقولُـه تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ [البقرة: 230]، وقولُـه تعـالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: 232]، وغيرُهـا مـن الآيـاتِ القرآنيَّـةِ، وفي الحديث المرفـوع: «**إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ**»[3]، ووردتْ أحاديثُ أخـرى كثيرةٌ تـدلُّ على هذا المعنى منهـا حديثُ عمـرَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَلَّـقَ حَفْصَةَ ثُمَّ رَاجَعَهَـا»[4]، وحديثُ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: «كَانَـتْ تَحْتِي امْرَأَةٌ، وَكُنْـتُ أُحِبُّهَا، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا فَقَـالَ لِي: طَلِّقْهَا، فَأَبَيْتُ، فَأَتَى عُمَـرُ النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَـرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِـيُّ ﷺ: «**طَلِّقْهَا**»»[5]، ويظهـر جليًّا أنَّ المخاطَبَ بالتَّطليقِ في هذه الآياتِ والأحاديثِ همُ الأزواجُ دون غيرِهم، والحكمةُ من ذلك المحافظةُ على العقدِ من مخاطـرِ إنهائِه لأتفهِ الأسبـابِ وأهونِها، إذ لا يخفـى أنَّ الرَّجلَ ـ في الغالـبِ ـ أكـثرُ تقديرًا لعواقـبِ الأمورِ وأبعدُ عـنِ الطَّيشِ في التَّصـرُّفِ، وخاصَّةً وهو يعلـم تبعاتِ وأعباءَ الطَّـلاقِ الماليَّةَ مِنَ المصاريـفِ المتعلِّقـةِ بـه والنَّفقـاتِ المترتِّبةِ على عاتقِـه في حالةِ إيقاعِـه للطَّـلاقِ، الأمرُ الَّذي يحملـه على التَّأنِّي والـتَّروِّي فيه، وتقديـرِ عواقبِ تصرُّفاته مع زوجتِه، بخلافِ المـرأةِ ـ إن قُدِّرَ أنَّ الطَّلاقَ بيدِها ـ، فلا تتأنَّى في إيقاعِه ـ غالبًا ـ لعاطفتِها الجيَّاشةِ وسرعـةِ انفعالِهـا ـ من جهـةٍ ـ، وعـدمِ تضرُّرِها ماليًّـا بتكاليفِ الطَّلاقِ ونفقاتِه ـ من جهةٍ أخرى ـ.

وإذا لم يجعلِ اللهُ الطَّلاقَ بيدِ الزَّوجةِ مع أنَّها شريكةُ زوجِها في العقـدِ والحياةِ الزَّوجيَّةِ؛ فلا حقَّ للرَّجلِ الأجنبيِّ فيه من بابٍ أولى.



هذا؛ وإنْ تقرَّر أنَّ للزَّوجِ حقًّا منفردًا في حَلِّ قيدِ النِّكاحِ بلفظِ الطَّـلاقِ ونحـوِه، إلاَّ أنَّ الزَّوجَ يجوز له ـ علـى أرجحِ قولَيِ العلماءِ ـ أنْ يـوكِّلَ غـيرَه عـن نفسِه في طـلاقِ زوجتِه منه، كمـا يجوز أن يفوِّضَ إلى زوجتِه حقَّه في طلاقِ نفسِها منه، وهو ما عليه مذهبُ جماهـيرِ أهـلِ العلمِ مـن الأئمَّةِ الأربعـةِ وغيرِهـم؛ لأنَّ الطَّلاقَ تصـرُّفٌ شرعيٌّ قوليٌّ تصـحُّ النِّيابةُ فيه والتَّوكيـلُ أوِ التَّفويضُ، كسائـرِ التَّصرُّفـاتِ القوليَّةِ الأخـرى الَّتي يملكها المـوكِّلُ كالبيعِ والإجارةِ وغيرِهما.

وتُستثنـى قضايـا الزَّوجين الَّتي تُرْفَـع إلى القاضي الشَّرعيِّ

---

(3) أخرجه ابن ماجه (2081)، والبيهقيّ في «الكبرى» (15179)، والدّارقطنيّ (3991)، والحديث حسّنه الألبانيّ في «إرواء الغليل» (2041).

(4) أخرجه أبو داود (2283)، وابن ماجه (2016)، وابن حبّان (4275)، والحاكم (2797).

(5) أخرجه أبو داود (5138)، والتّرمذيّ (1189)، وابن ماجه (2088)، وأحمد (4711)، وابن حبّان (427)، والحاكم (2798)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسّنه الألبانيّ في «الصّحيحة» (919).

فتاوى شرعية

للفصلِ فيهـا، وذلك في حالاتٍ خاصَّة، فيجوز للقاضي أن يحكمَ بالتَّفريـقِ بين الزَّوجـين إذا ما حصلتْ أسبابُـه كالتَّفريقِ بسببِ الإيـلاءِ أو الظِّهارِ أو اللِّعانِ، أو بسببِ الضَّـررِ، أو للعيوبِ المانعةِ من الاستمتاعِ، أو بسببِ إسلامِ أحدِ الزَّوجين أو ردَّته، أو التَّفريقِ لفقـدانِ الزَّوجِ أو لعدمِ الإنفـاقِ، وغيرِ ذلك من الأسبابِ الَّتي في بعضِها خلافٌ، وقد يكون الاختلافُ في تفاصيلِها.

وللقاضي أن يرفـعَ الخلافَ في القضايا المطروحةِ عليه ذاتِ الصِّبغـةِ الاجتهاديّـةِ، وحكمُه نافـذٌ إذا ورد على سبـبٍ صحيحٍ موافقٍ لحكمٍ شرعيٍّ ـ نصًّا كان أو إجماعًا ـ وقَوِيَ دليلُه؛ لأنَّ مهمَّةَ القاضـي الشَّرعيِّ هي امتدادٌ لمهمَّـةِ الرُّسلِ، تتمثَّل في فكِّ النِّزاعِ بـين المتخاصمـين برفعِ الظُّلـمِ والفصـلِ في الخصومـةِ بالحقِّ والعـدلِ، قـال تعـالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: 25]، لذلـك فحكمُ القاضـي ينتقض بالخطإ في السَّبـبِ والاجتهادِ، فإنْ كان الحكمُ مرتَّبًا على سببٍ باطـلٍ كشهادةِ الزُّورِ، فإذا شهد شاهـدَا زورٍ عند القاضي على طلاقِ امرأةٍ وحكم القاضي بالطَّلاقِ؛ فإذا حصل العلمُ بالكذبِ فلا يُنَفَّذُ حكمُ القاضي ولا تُطلَّق من زوجِها بقضائه، ولا يجوز لها أن تتزوَّجَ من آخَرَ، وأمَّا الخطأُ في الاجتهادِ ـ إذا كان القاضـي أهـلاً له ـ؛ فإنَّه ينتقض وجوبًـا بمخالَفةِ نصٍّ صريـحٍ من كتابٍ أو سنَّةٍ ولو كانت آحـادًا، وينتقض ـ أيضًا وفاقًا لمالـكٍ والشَّافعـيِّ ـ بمخالَفةِ القياسِ الجلـيِّ، وزاد مالكٌ مخالفةَ القواعدِ الأساسيّةِ.

ومعنـى ذلـك أنَّ القاضـيَ لا يُحِـلُّ حرامًا ولا يحـرِّمُ حلالاً، فلـو أنَّ زوجًا أوقع طلقاتٍ ثلاثةً؛ فـإنَّ زوجتَه لا تحلُّ له بعد ذلك حتَّـى تنكحَ زوجًا غيرَه، ولا يُنَفَّذُ حكـمُ القاضي إذا حكم بحلِّها؛ لأنَّ حُكْمَـه لا يُحِـلُّ الحرامَ، أمَّا إذا كان في نـوعِ الطَّلقاتِ خلافٌ اجتهاديٌّ؛ فإنَّ حُكمَ القاضي يرفع الخلافَ بالضَّوابطِ السَّابقةِ، ويشهـد لذلك قولُـه ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِـمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَـكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّته مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَقْضِـي نَحْوَ مَا أَسْـمَعُ، فَمَنْ قَضَـيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَـيْئًا، فَلاَ يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[6].

قال النَّوويُّ:

«وفي هـذا الحديـثِ دلالةٌ لمذهبِ مالـكٍ والشَّافعـيِّ وأحمدَ وجماهـيرِ علمـاءِ الإسـلامِ وفقهـاءِ الأمصـارِ مـنَ الصَّحابةِ والتَّابعـين فمَـن بعْدَهم، أنَّ حُكْـمَ الحاكمِ لا يُحيـلُ الباطنَ ولا يُحِـلُّ حرامًـا، فإذا شهـد شاهِـدَا زورٍ لإنسانٍ بمـالٍ فحكم به الحاكـمُ؛ لم يَحِـلَّ للمحكومِ له ذلك المالُ، ولو شهِـدَا عليه بقتلٍ لم يَحِـلَّ للـوليِّ قتلُه مـع علمِه بكذبِهمـا، وإن شهِدَا بالـزُّورِ أنَّه طلَّـق امرأتَـه لم يَحِلَّ لمن علـم بكذبِهما أن يتزوَّجَهـا بعد حكمِ القاضـي بالطَّلاقِ، وقال أبـو حنيفةَ رحمه الله: يُحِلُّ حكمُ الحاكمِ الفروجَ دون الأموالِ، فقـال: يُحِلُّ نكاحَ المذكورةِ، وهذا مخالِفٌ لهـذا الحديـثِ الصَّحيحِ ولإجمـاعِ مَن قبله، ومخالِـفٌ لقاعدةٍ وافـق هو وغيرُه عليها، وهي أنَّ: «الأَبْضَـاعَ أَوْلَى بِالاحْتِيَاطِ مِنَ الأَمْوَالِ»»[7]، والعلم عند الله تعالى.

---

(6) متّفقٌ عليه: أخرجه البخاريّ (7169)، ومسلم (1713) دون قوله «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»، من حديث أمّ سلمة رضي الله عنها.

(7) «شرح مسلم» للنّوويّ (6/12).



فتاوى شرعية

في ضابط الحرج وحالات الجمع بين الصلاتين

■ **السُّؤال:**

ما هو ضابطُ الحرجِ في الجمعِ بين الصَّلاتين في الشِّتاء؟ وإذا حاك في صدرِ المرءِ حرجٌ من جمعِ الإمامِ، فهل له أن ينويَ معه العشاءَ نافلةً ثمَّ يصلِّيها في بيتِه عند دخولِ وقتِها؟ وبارك اللهُ فيكم.

■ **الجواب:**

الحَـرَجُ في الجُمْلَة هـو ما أدى إلى مشقة زائـدة في البَدَنِ أو النَّفْسِ أو المالِ في الحالِ أو المآلِ، قـال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، أي: مـا كَلَّفكـم مـا لا تُطيقون وما ألزمكم بشيءٍ يَشقُّ عليكم إلاَّ جعل اللهُ لكم فَرَجًا ومخرجًا.

ومـن الحـالاتِ الَّتـي تُسبِّـبُ الحـرجَ ويُرخَّص فيهـا الجمعُ بين الصَّلاتين عنـد وجودِه: السَّفرُ، والمطـرُ، والمرضُ، والحاجةُ العارضةُ وغيرُها.

أمَّا الحالاتُ الَّتي يجوز فيها الجمعُ بين الصَّلاتين في الحضرِ في فصلِ الشِّتـاء غالبًا فمنها: المطـرُ، والبَرْدُ الشَّديـدُ، والرِّيحُ العاصـفُ، والوَحَلُ الكثيرُ، والثَّلجُ ونحوُهـا، أمَّا المطرُ فيجوز فيه الجمـعُ سواءً كان نازلاً أو متوقَّعَ النُّزولِ، أمَّا البردُ والثَّلجُ والوَحَلُ فيجـوز فيهـا الجمـعُ وإن لم يكـنِ المطرُ نـازلاً لحصـولِ الضَّيقِ والحـرجِ على المكلَّفين، و«**المَشَـقَّةُ تَجْلِبُ التَّيْسِـيرَ**»، ولا يخفى أنَّ الصَّـلاةَ في المسجـدِ جمعًا أولى من الصَّـلاةِ في البيوتِ مفرَّقةً، ولأنَّ مـا انعقد عليه الإجمـاعُ أولويَّةُ إقامِ الصَّـلاةِ المفروضةِ في المسجدِ جماعةً على إقامتِها في البيوتِ قولاً واحدًا.

أمَّا إن جمع الإمامُ مع انتفاءِ الحرجِ كليًّا فللمقتدي أن ينويَ به فضْلَ الجماعةِ نفلاً ثمَّ يقيمُها فرضًا بعد دخولِ وقتِها في المسجدِ مع المتخلِّفين عن الصَّلاةِ أو في البيتِ مع جماعةٍ إن أمكنه ذلك؛ لقولِه ﷺ في قصَّةِ الرَّجلين: «**إِذَا صَلَّيْتُمَا فِي رِحَالِكُمَا ثُمَّ أَتَيْتُمَا مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَصَلِّيَا مَعَهُمْ، فَإِنَّهَا لَكُمَا نَافِلَةٌ**»[8].

علمًـا أنَّ الجمـعَ لا يختصُّ بالسَّفـرِ، وإنَّمـا يتعلَّـق بالحرجِ والحاجـةِ، بخـلافِ القصرِ فإنَّه يتعلَّق بالسَّفـرِ، إذ القصرُ سنَّةٌ راتبـةٌ واجبةٌ علـى الرَّاجحِ، والجمعُ رخصـةٌ عارضةٌ، وعليه فلا يجـوز اتِّخـاذُ الجمعِ عادةً يُترخَّـص بها مع تخلُّفِ علَّتـه المتمثِّلةِ في دفـعِ الحـرجِ والمشقَّـةِ أو وجـودِ الحاجـةِ، قال النَّـوويُّ رحمه الله: «وذهـب جماعةٌ من الأئمَّةِ إلى جوازِ الجمـعِ في الحضرِ للحاجةِ لمـن لا يتَّخذه عـادةً، وهو قولُ ابنِ سيريـنَ، وأشهبَ من أصحابِ مالك، وحـكاه الخطَّابيُّ عن القفَّالِ الشَّاشيِّ الكبيرِ من أصحابِ الشَّافعـيِّ عـن أبـي إسحاقَ المـروَزيِّ عـن جماعةٍ مـن أصحابِ الحديثِ، واختاره ابنُ المنذرِ، ويؤيِّده ظاهرُ قولِ ابنِ عبَّاسٍ: «أَرَادَ أَنْ لاَ يُحْرِجَ أُمَّتَهُ»[9] فَلَمْ يعلِّله بمرض ولا غيره»[10].

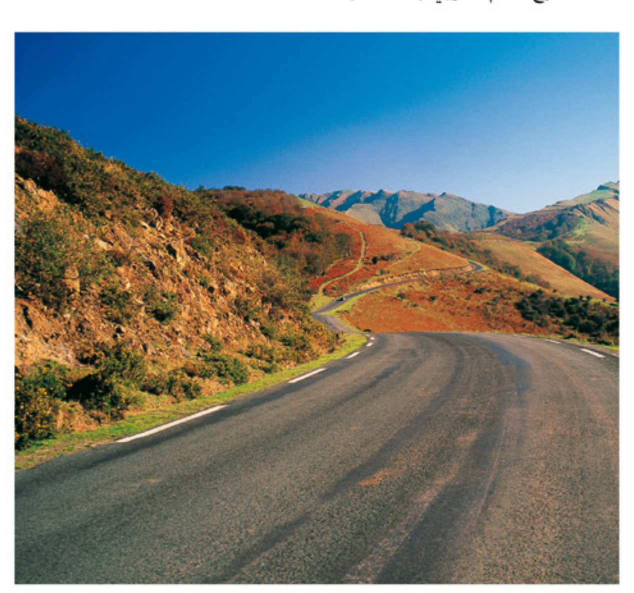
والعلـمُ عنـد اللهِ تعـالى، وآخـرُ دعوانـا أنِ الحمـدُ للهِ ربِّ العالمـين، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنـا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

---

(8) أخرجه التِّرمذيّ (219)، والنَّسائيّ (858)، وأحمد (17474) وأخرجه أبو داود (575) بلفظ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فِي رَحْلِهِ ثُمَّ أَدْرَكَ الإِمَامَ وَلَمْ يُصَلِّ، فَلْيُصَلِّ مَعَهُ فَإِنَّهَا لَهُ نَافِلَةٌ»، من حديث يزيد بن الأسود العامريّ رضي الله عنه، وصحَّحه النَّووي في «الخلاصة» (1/ 271)، وابن الملقِّن في «البدر المنير» (4/ 412)، والألباني في «صحيح الجامع» (667).

(9) أخرجه مسلم (705).

(10) «شرح مسلم» للنَّوويّ (5/ 219).



لله درُّ هاتيك الهمم!

نماذج من همم المعاصرين

إبراهيم بن حليمة
إمام خطيب . الجزائر

إنَّ مطالعة سير العظماء لذات أثر بليغ في النُّفوس، تحدوها لاقتفاء الأثر، والتَّشبُّه بالكُمَّل ممَّن غبر، إلاَّ أنَّ كثيرًا ممَّن ألِف الرَّاحة وتوسَّد الخمول وافترش الكسل؛ إذا ما سمع عن سير السَّابقين من القرون الأُوَل تعذَّر بأعذار واهية، كقوله مثلا: الوقت ليس كالوقت، وإنَّ زمنهم مليء بالبركة، خالٍ من الفتن والملهيات... وهلمَّ جرًّا من الحجج الواهيات، إلاَّ أنَّك إن حاججتهم بما وصل إليه علماء زمانهم حججتهم. فهؤلاء علماؤنا عاشوا معنا وبين أظهرنا، وذاقوا من الفتن الَّتي ذقنا، وأظلَّتهم الملهيات الَّتي أظلَّتنا، فلم يثنهم ذلك أبدًا عن مواصلة الطَّلب، وركوب متن العلم مع من ركب، حتَّى صاروا في هذا العصر أشهرَ من نارٍ على علَم، ومن أوَّل من يُذكرُ إذا ذُكرَت الهمم، فهم حجَّة على بني عصرهم من الطُّلاَّب، وقدوة صالحة لمن رام طريق العلم من ذوي الألباب، وأدعك الآن أيُّها القارئ الكريم تستروح بين جنَّات العلماء، تستنشق من عبيرها، وتأكل من ثمارها، وتستقي من غديرها.

محمَّد الأمين الشَّنقيطي (ت 1393 هـ . 1974م):

العَلَمُ البحر المحيط، فخر بلاد شنقيط، المفسِّر الأصولي الفقيه، والعالم الجليل النَّبيه، من كان يُشَبَّهُ بابن تيمية في قوَّة الاستحضار، فلله درُّه من عالم خلت من مثله الدِّيار.

وإليك . أخي القارئ. هذه القصَّة اللَّطيفة، وهي غيض من فيض، وقطرة من بحر ممَّا كانت تنطوي عليه نفس هذا العَلَم الفذِّ من همَّة عالية، ينقلها عنه تلميذه الشَّيخ عطيَّة سالم رحمه الله فيقول: حدَّثني رحمه الله قال: جئت للشَّيخ في قراءتي عليه فشرح لي كما كان يشرح، ولكنَّه لم يشف ما في نفسي على ما تعوَّدت، ولم يروِ لي ظمئي، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجةٍ إلى إزالة بعض اللَّبس، وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهرًا، فأخذت الكتب والمراجع فطالعت حتَّى العصر، فلم أفرغ من حاجتي، فعاودت حتَّى المغرب، فلم أنته أيضًا، فأوقد لي خادمي أعوادًا من الحطب أقرأ على ضوئها كعادة الطُّلاَّب، وواصلت المطالعة وأتناول الشَّاهي الأخضر كلَّما مللت أو كسلت، والخادم بجواري يوقد الضَّوء حتَّى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلاَّ لصلاة فرض أو تناول طعام، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسي وزال عني لبسي، ووجدت هذا المحلَّ من الدَّرس كغيره في الوضوح والفهم، فتركت المطالعة ونمت وأوصيت خادمي أن لا يوقظني لدرسي في ذلك اليوم اكتفاءً بما حصَّلت عليه واستراحةً من عناء سهر البارحة.

فقد بات مفكِّرًا فيها فأضحت لفهم الفدم خافضة الجناح[1]

قال الشَّيخ عطية . معلِّقًا .: وإنَّ هذا لدرسٌ لأبنائه، ومنهجٌ لطلاَّب العلم في الصَّبر والدَّأب والمثابرة وقد نفعني الله بهذه الحادثة في دراستي وتدريسي وخاصَّة في صورةٍ مشابهة في الفرائض لم أكن درستها على أحد[2].

(1) من ترجمة تلميذه الشَّيخ عطيَّة سالم، انظرها في «ملحق أضواء البيان» (10/281 . 282) بيروت، لبنان، دار الكتب العلميَّة، الطَّبعة الثَّالثة، 2006م.
(2) المصدر نفسه.

محمَّد البشير[3] الإبراهيمي (ت1385هـ. 1965م):

هـو حسنة الأيَّـام، حامي العربيَّة والإسـلام، فخر الجزائر، المستودع قلبَه من المحفوظات ما ينفد ـ مع تسطيره ـ حبرُ المحابر؛ محمَّـد البشير الإبراهيمي نسبًا الجزائـري موطنًا، الَّذي يحقِّق بعجيب حفظه ما نقرأه من غرائب الحفظ عن سلفنا.

○ **حافظة غريبة وهمَّة عجيبة:**

وسأدعـك أيُّهـا القارئ تسمتـع وتتعجَّـب ـ في آن واحد ـ ممَّا يقصُّـه علينـا البشير عـن نفسه وهـو في حداثة الطَّلـب، وكيف عـرف شيخُه وعمُّه محمَّد المكِّي تصريف هـذه الذَّاكرة العجيبة والحافظـة الغريبة، قـال: «...فحفظت القـرآن حفظًا متقنًا في آخـر الثَّامنة من عمري، وحفظت معه ـ وأنا في تلك السِّنِّ ـ نتيجةً للتَّنويع[4] الَّذي ذكرته ـ «ألفيَّة ابن مالك» و«تلخيص المفتاح»، وما بلغـت العاشرة حتَّى كنت أحفـظ عدَّة متون علميَّـة مطوَّلة، وما بلغـت الرَّابعة عشرة حتَّـى كنت أحفظ ألفيتـي العراقي في الأثر والسِّـير، ونظمَ الدُّول لابـن الخطيب ومعظـم رسائله المجموعة في كتابه «ريحانة الكتاب»، ومعظـمَ رسائل فحول كتَّاب الأندلس كابـن شهيد وابن أبي الخصـال وأبي المطرِّف ابـن أبي عميرة، ومعظـمَ رسائـل فحـول المشـرق كالصَّابـي والبديـع، مع حفظ المعلَّقـات والمفضليـات وشعر المتنبِّي كلِّه وكثيرٍ مـن شعر الرَّضي وابـن الرُّومي وأبـي تمَّام والبحتري وأبي نوَّاس، كما استظهرتُ كثيرًا من شعر الثَّلاثة: جرير والأخطل والفرزدق، وحفظت كثيرًا مـن كتب اللُّغة كاملةً كـ«الإصـلاح» و«الفصيح»، ومن كتب الأدب كـ«الكامـل» و«البيان» و«أدب الكاتب»، ولقـد حفظت وأنا في تلك السِّـنِّ أسماء الرِّجال الَّذين ترجـم لهم «نفح الطِّيب» وأخبارهم وكثـيرًا من أشعارهـم، إذ كان «نفـح الطِّيب» ـ طبعـة بولاق ـ هو الكتاب الَّذي تقـع عليه عيني في كلِّ لحظة منذ فتحت عيني على الكتـب، وما زلت أذكـر إلى الآن مواقع الكلمـات من الصَّفحات وأذكـر أرقام الصَّفحات من تلـك الطَّبعة، وكنت أحفظ عشرات الأبيـات مـن سمـاع واحد ممَّـا يحقِّق ما نقـرأه عـن سلفنا من غرائب الحفظ»[5].

قلـت: ذلك فضـل الله يؤتيه من يشاء، ولكـنَّ الشَّأنَ ليس في الحافظـة وحدهـا ـ وإنَّها لذات شأن ـ، فكم مـن ذي حافظة أتت عليهـا همَّته السَّافلـة بالتَّعطيل، فهو مقعدٌ ليـس له إلى تحصيل العلـم من سبيـل، وإنَّما الشَّـأن كلُّ الشَّـأن في الهمَّـة الَّتي تبغي الاستزادة من العلم، ولا يطيب لها رقاد حتَّى تقرَّ عينها بنصيبٍ وافـرٍ من الحفظ والفهـم، وإليك تتمَّة الكلام تجـد مصداق ما ذكرت لـك من سموِّ همَّة هذا الإمام، قـال: «وكان عمِّي يشغلني في ساعـات النَّهار بالدُّروس المرتَّبة في كتب القواعد وحدي أو مع الطَّلبة ويمتحنني ساعةً من آخر كلِّ يوم في فهم ما قرأت فيطرب لصحَّة فهمي، فإذا جاء اللَّيل أملى عليَّ من حفظه ـ وكان وسطًا ـ أو من كتاب ما يختار لي من الأبيات المفردة أو من المقاطيع حتَّى أحفـظ مائة بيت، فإذا طلبت المزيد انتهرني وقال لي: إنَّ ذهنك يتعـب من كثرة المحفـوظ كما يتعب بدنك من حمـل الأثقال، ثمَّ يشرح لي ظواهر المعاني الشِّعرية، ثمَّ يأمرني بالنَّوم رَحِمَهُ اللهُ»[6].

○ **التهامه الكتب يُسلِّيه عن عاهته:**

وقـال رَحِمَهُ اللهُ: «فلمَّـا بلغـت التَّاسعـة أصيبـت رجلـي اليسرى بمرض، وكان للإهمال والبعد عـن التَّطبيب المنظَّم أثر كبير في إصابتي بعاهة العـرج في رجلي، وقد أنساني ألَمَها والحُزنَ عليها مـا كنت مُنَكَبًّـا عليه من التهـام كتب كاملة بالحفـظ، فكان لي بذلك أعظمُ سلوى عن تلك العاهة»[7].

أقـول: فلا غـرو إذن أن يكتـب هؤلاء الأعـلام أسماءهم في سجلِّ التَّاريخ بحروف من ذهب!

(3) تنبيه: يوهم صنيع الزِّركلي عند ترجمته للإبراهيمي في «الأعلام» (6/54) بأنَّ اسم أبيه «البشير»؛ إذ قال: «محمَّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي»، وليس الأمر كذلك؛ فـ«البشير» هو اسمه، أمَّا اسم أبيه فهو «محمَّد السَّعدي» كما أثبته الإبراهيمي نفسه قائلاً: «أنا محمَّد البشير بن محمَّد السَّعدي بن عمر بن محمَّد السَّعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي»، انظر: «الآثار» (5/163) مقال: «من أنا؟».

(4) أي تنويع الموضوعات والمحفوظات.

(5) «الآثار» (5/164ـ165).

(6) «الآثار» (5/164ـ165).

(7) نفسه.

محمَّد ناصر الدِّين الألباني (ت1420هـ ـ 1999م):

المحدِّث البارع، والفقيه الورع، الَّذي بزَّ الأقران في هذا الزَّمان، صاحب التَّصانيف الماتعة الَّتي طارت بها الرُّكبان، مجدِّد علم الحديث في هذا العصر، وناشر السُّنَّة في كلِّ قطر ومصر.

وهذا الإمام أحد العلماء الَّذين ضربوا بعلوِّ هممهم أروع الأمثلة، فاسمع إليه لتتحقَّق من صدق المقال.

يقول رحمه الله: «وسائر الوقت أصرفه في سبيل طلب العلم، والتَّأليف، ودراسة كتب الحديث؛ وخاصَّة المخطوطات منها في المكتبة الظَّاهرية؛ ولذلك فإنَّني ألازم هذه المكتبة ملازمة الموظفين فيها لها! ويتراوح ما أقضيه من الوقت فيها ما بين ستِّ ساعات وثماني ساعات يوميًّا على اختلاف النِّظام الصَّيفي والشَّتوي في الدَّوام فيها»[8].

○ اهتبال الفرص في الأسفار:

بعد سفرٍ مضنٍ ورحلة اضطراريَّة شاقَّة من عمَّان إلى دمشق ثمَّ إلى بيروت أين يزور الشَّيخ صديقًا قديمًا له، يحكي لنا فيقول: «فلمَّا استقرَّ في منزله قراري، وارتاح من وعثاء السَّفر بالي، كان من الطَّبيعي جدًّا أن أهتبل فرصة هذه الغربة الطَّارئة، فأتوجَّه بكلِّيتي إلى الدِّراسة والمطالعة في مكتبته العامرة الزَّاخرة بالكتب المطبوعة منها والمخطوطة النَّادرة، وفيها أكثر المصادر الَّتي تلزمني، وكثيرٌ ممَّا ليس في مكتبتي في دمشق»[9].

○ الشَّيخ في مصر:

وفي مدَّة إقامتي في القاهرة كنت أتردَّد ـ كلَّما سنحت لي الفرصة ـ إلى دار الكتب المصريَّة لدراسة مخطوطات كتب الحديث فيها، وكذلك فعلت حين سافرت منها إلى الإسكندريَّة، فكنت أتردَّد إلى مكتبتها المعروفة بالمكتبة البلديَّة، وقد استفدت من المكتبتين فوائد هامَّة جمَّة.

ونسخت بيدي من المكتبة الثَّانية رسالة للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله يحقِّق القول فيها في الأحاديث الَّتي استخرجها الحافظ القزويني من كتاب «مصابيح السُّنَّة» وحكم عليها بالوضع[10].

(8) «حياة العلاَّمة الألباني بقلمه» جمع وإعداد: عصام موسى هادي (9).
(9) المصدر نفسه (19).
(10) المصدر نفسه (24).

○ الشَّيخ في حلب:

ومن عادتي منذ بضع سنين أن أسافر إلى حلب أسبوعًا من كلِّ شهر، أقضيه أو أقضي غالبه في مكتبتها الوحيدة العامرة بالمخطوطات، وهي «مكتبة الأوقاف الإسلاميَّة»، أقضي فيها ساعات من كلِّ يوم في دراسة مخطوطاتها، ونسخ ما هو ضروريٌّ منها لمشروعاتي العلميَّة، وعلاوةً على هذا فإنِّي أتدارس السُّنَّة وعلومها مع بعض الرَّاغبين في العلم فأقوم بإلقاء عددٍ من الدُّروس في كلِّ أسبوع[11].

سل عنه مكتبة بل مكتباتِ هُدى
تربَّع الشَّيخ في أرجائها وربا
ما كان يسأم من عيشٍ بها أبدًا
وكان يهجر فيها الصُّحب والعنبا
ولا يفارقها حرصًا على زمنٍ
حتَّى يطالع منها الدِّقَّ والسَّهبا
فيفصم اللُّؤلؤ المكنون عن زبدٍ
ويطعم العسل المعسول والرُّطَبا[12]

(11) نفسه.
(12) «محدِّث العصر» لسمير الزُّهيري، والأبيات من قصيدة في رثاء العلاَّمة الألباني رحمه الله بقلم: أبي الفضل عادل ابن المحجوب المغربي. [عن: «الإمام الألباني دروس ومواقف وعبر»، للدُّكتور عبد العزيز السَّدحان (200)].



محمود محمَّد شاكر (ت1418هـ. 1998م):

الأديب الأريب الَّذي نذر حياته للدِّفاع عن لغتنا، والفارس الرَّهيب الَّذي وقف في وجوه الكائدين لنا، العابثين بمصادرنا، المنظِّرين لفساد الحياة الأدبيَّة، وتفريغ الأجيال من الثَّقافة العربيَّة، فكان بذلك منافحًا عن الإسلام حارسًا له، إذ الدِّفاع عن العربيَّة دفاع عنه، فلله درُّه، كم تعب في سبيل هذه الأهداف النَّبيلة، ولكم عانى لتحقيق تلكم الغايات الجليلة، ولكنَّ كثيرًا من مثقَّفينا ـ فضلاً عن غيرهم ـ لا يعرفون اسم هذا الرَّجل فكيف بكتاباته؟!

فاسمع إلى شيخ العربيَّة أبي فهر يحدِّثك عن حاله، علَّها تذكي نار همَّتِك، وتوقظك من رقدتك.

يقول الأستاذ:

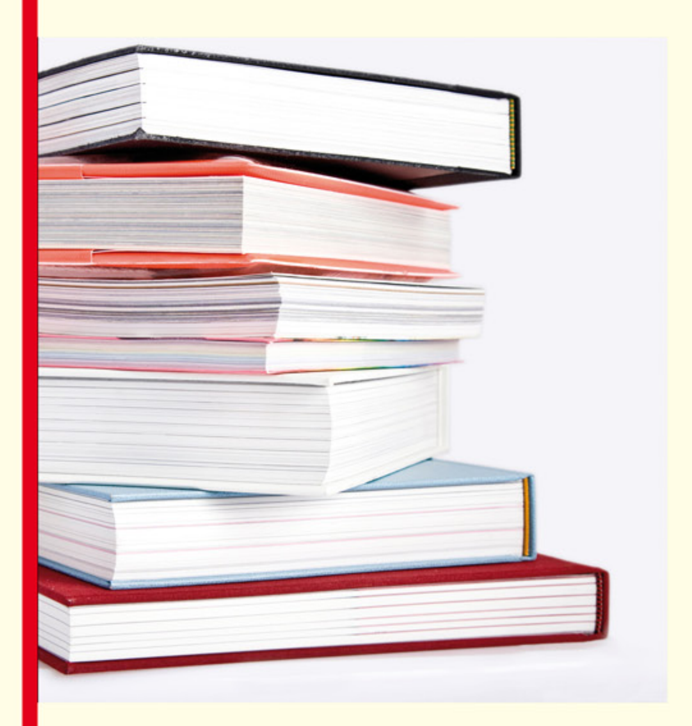
«فأنا الآن مجيبك عن هذا السُّؤال[13] بإيجاز جامع ـ على طوله ـ،فإنَّ هذا الإحساس القديم المبهم المتصاعد بفساد الحياة الأدبيَّة، قد أفضى بي، كما حدَّثتك في الفقرات الثَّلاث الأول: (1 . 3)، إلى إعادة قراءة الشِّعر العربيِّ كلِّه أوَّلاً، ثمَّ قراءة ما يقع تحت يدِي من هذا الإرث العظيم الضَّخم المتنوِّع من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ، وأصول فقه وأصول دينٍ... ومِلَلٍ ونِحَلٍ، إلى بحرٍ زاخرٍ من الأدب والنَّقد والبلاغة والنَّحو واللُّغة، حتَّى قرأتُ الفلسفة القديمةَ والحساب القديم، والجغرافيَّة القديمة، وكتب النُّجوم وصور الكواكب، والطِّبَّ القديم ومفردات الأدوية، وحتَّى قرأتُ البيزرة والبيطرة والفِراسة... بل كلُّ ما استطعت أن أقف عليه بحمد الله سبحانه، قرأت ما تيسَّر لي منه، لا للتَّمكُّن من هذه العلوم المختلفة، بل لكي ألاحظ وأتبيَّن وأزيح الثَّرى عن الخبيء والمدفون»[14].

أقول: إذا أردت معرفة ثمرة هذه القراءة، ونتيجة هذا الجهد سل عنها «أباطيل وأسمار»، وكتاب «المتنبِّي» و«القوس العذراء» و«نمط صعب ونمط مخيف»، وغيرها من أبناء لُبِّه ينبؤوك بإحكام.

□ □ □

فهذه ـ أخي القارئ ـ شذرات من همم القوم لك نقلت، وبها ـ عن كثيرٍ من مواقفهم في التَّحصيل ـ مثَّلْتُ، وما قصدت الاستقصاء إذ ذاك يطول والمقام لا يسمح، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعُنق، وأختم هذه الجولة بكلمة للعلاَّمة الإبراهيمي إذ يقول: «وبها ـ يعني العصابة العالمة ـ نقيم الحجَّة على شبابنا الَّذي نعدُّه للميراث والاستخلاف، والَّذي فتنته الفتن وألهته الملهيات عن التَّحصيل للعلم، وبهم نضرب الأمثال ليذكر الغافل وينشط الخامل، وإنَّ في سير الكاملين لذكرى للمقصِّرين والخاملين»[15].

وصلَّى الله وسلَّم على سيِّد الأوَّلين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(13) السُّؤال هو ما ذكره قبل هذا الكلام بأسطر قائلاً: كيف نشأ الخلاف؟ ولِم نشأ الخلاف بيني وبين هذه «المناهج الأدبيَّة» السَّائدة؟

(14) «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» (23 ـ 24)، وقد طبعت هذه الرِّسالة مع كتابه «المتنبِّي»، وهي رسالة نافعة جدًّا تكشف كثيرًا من الحقائق عن فساد الحياة الأدبيَّة والثَّقافية عند مثقَّفينا وتكشف زيف الاستشراق والمستشرقين، ومن تخرَّج من مدارسهم وصار بوقًا لهم من كتَّاب وأدباء مشهورين.

(15) «الآثار» (186/2).

مسألة

في ضوابط الأخذ بالمباحات

لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم
ابن تيمية الحرَّاني
(661هـ. 728هـ)

قرأها وعلّق عليها:
عمار تمالت

اختلفت نظرةُ النَّاس اليومَ إلى المباحات الَّتي أنعم الله بها على خلقه، فمنهم من أغرق نفسه في التَّلذُّذ بها من غير رجوع إلى الضَّوابط الشَّرعيّة في التَّعامل معها، ومنهم من قتَّر على نفسه ظانًّا أنَّ ذلك من الزُّهد في الدُّنيا وملذَّاتها، وجاء فريقٌ ثالث فنظر إلى هذه المباحات نظرةً شرعيَّةً، فتوسَّط في الأخذ بها من غير إسراف ولا تقتير، وذلك أنَّ شريعة الإسلام دعتْ إلى التَّوسُّط في كلِّ شيءٍ؛ بل إنَّ مبدأ التَّوسُّط هو الَّذي ميَّز شريعتَنا عن بقيَّة الشَّرائع السَّماويَّة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143].

ومن هنا كانت نظرةُ الإسلام في الأخذ بالمباحات والملَذَّات الَّتي أنعم الله بها على عباده نظرةً تتَّصفُ بالتَّوسُّط بين الإغراق فيها دون تمحيص، وبين الزُّهد فيها دون تعقُّلٍ وتمييز، فأباح الإسلامُ التَّمتُّع بالطَّيِّبات الَّتي أخرج الله لعباده بشرطين: عدم الإسراف فيها، وأداء شكر المُنْعِم بها بفعلِ ما أوجب وتركِ ما حرَّم، كما أنكر في الوقت نفسه على من حرَّم على نفسه أو غيره الأخذَ بهذه المباحات ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف : 32].

ولمَّا كانت هذه المسألة محلَّ نظرٍ وتأمُّل، وحصل فيها الإشكال، ووقع الخلافُ بين فئات النَّاس، كتبَ فيها العلماء، ودرسها الفقهاء، فجمعوا أدلَّتَها، ونظروا في مقاصدها.

ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية الحرَّاني رحمه الله (ت 728هـ)؛ فإنَّ له فيها كلامًا جامعًا، مبنيًّا على الأدلَّة الشَّرعيَّة من الكتاب والسُّنَّة، متّصفًا بالتَّحقيق والتَّحليل والتَّوضيح.

وكتب شيخُ الإسلام في هذه المسألة ضمن فتوى له، نُشرت في «مجموع فتاويه» (22/133 ـ 139).

وقد عثرتُ لها ـ بفضل الله تعالى ـ على نسخة خطِّيَّة، ضمنَ مجموع بالمكتبة السُّليمانيَّة بتركيا برقم (159)، فقابلتُ بين المخطوط والمنشور، ورأيتُ بينهما بعضَ الفروق، فنبَّهتُ على بعضها، وأصلحتُ الأخطاءَ الواقعةَ فيهما، وكمَّلتُ النَّواقص، لأجل إخراجِ نصٍّ متكاملٍ قريبٍ ممَّا كتبه المؤلِّف.

وهذا نصُّ الفتوى:

مسألة:

في رجل ترك دخولَ الحمام والترفُّهَ والتنزُّهَ عن الأقمشة الثمينة[1]، مثل: الحرير والكتّان [المُتغالَى][2] في تحسينه، وما ناسبهما، في تركه حرامٌ أم لا[3]؟

الجواب:

الحمد لله، أمَّا ما حرّمه الله ورسوله كالحرير، فإنَّه يُثاب على تركه، كما يُعاقب على استعماله[4].

وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنّه قال: «**مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ**»[5].

وقال عن الذّهب والحرير: «**هَذَانِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي حِلٌّ لإِنَاثِهَا**»[6].

وأمَّا المباحات، فيُثاب على ترك فضولها، وهو ما لا يحتاج إليه لمصلحة دينه، كما أنَّ الإسرافَ في المباحات مَنْهِيٌّ عنه.

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الفرقان].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة هود].

وقال تعالى إخبارًا عن الكفَّار: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف: 20]، الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الإسراء].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الإسراء].

والإسرافُ في المباحات هو بمجاوزة الحدِّ، وهو من العُدوان المُحَرَّم، وتركُ فُضولها هو من الزُّهد المباح.

وأمَّا الامتناعُ من فعل المباحات مطلقًا، كالَّذي يمتنعُ من أكل اللَّحم، وأكل الخبز، أو شُرب الماء، أو من لُبس الكتَّان والقطن، ولا يلبس إلاَّ الصُّوف، ويمتنع من نكاح النِّساء، ويظنُّ أنَّ هذا من الزُّهد المستحبِّ، فهذا جاهل ضالٌّ من جنس زُهَّاد النَّصارى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة المائدة].

نزلت هذه الآية بسبب؛ في جماعة من الصَّحابة رضي الله عنهم كانوا قد عزموا على تركِ أكل الطَّيِّبات كاللَّحم ونحوه من المآكل وتركِ النِّكاح.

وفي «الصَّحيحين»[7]: عن أنس رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ**. وفي رواية: **مَا بَالُ رِجَالٍ. يَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ فَلا أُفْطِرُ، وَيَقُولُ الآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ فَلا أَنَامُ، وَيَقُولُ الآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلاَ أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَيَقُولُ الآخَرُ: أَمَّا أَنَا فَلاَ آكُلُ اللَّحْمَ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

وفي «صحيح البخاري»[8]: لمَّا رأى أبا إسرائيل قائمًا في الشَّمس[9]، وقالوا: إنَّه نذر أن يقوم ولا يستظلَّ، ولا يتكلّم، ويصوم، فقال: «**مُرُوهُ أَنْ يَسْتَظِلَّ، وَيَتَكَلَّمَ، وَيَجْلِسَ، وَيُتِمَّ صَوْمَهُ**».

وقد قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [سورة البقرة].

فأمر بالأكل من الطَّيِّبات، والشُّكر له.

والطَّيِّبُ: ما ينفعُ الإنسانَ، ويعينُه على الطَّاعة[10].

(1) في «مجموع الفتاوى»: وسئل عن المتنزِّه عن الأقمشة الثَّمينة.
(2) زيادة من «المجموع».
(3) في «المجموع»: هل في ترك ذلك أجرٌ أم لا؟ أفتونا مأجورين.
(4) في «المجموع»: على فعله.
(5) أخرجه البخاري (5832) ومسلم (2073)، من حديث أنس رضي الله عنه، وله عندهما شواهد.
(6) أخرجه أبو داود (4057) والنَّسائي (5144) وأحمد (750)، من حديث عليٍّ رضي الله عنه وله شواهد.
(7) البخاري (5063) ومسلم (1401)، من حديث أنس رضي الله عنه.
(8) «صحيح البخاري» (6704)، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.
(9) جملة الحديث هنا جاءت مختصرة، وفي «مجموع الفتاوى»: «وفي صحيح البخاري أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى رجلاً قائمًا في الشَّمس فقال: «مَا هَذَا؟»، قالوا: هذا أبو إسرائيل»، الحديث.
(10) جملة «ويعينه على الطَّاعة» ليست في «مجموع الفتاوى».

وحرَّم الخبائثَ، وهو: ما تضرُّه في دينه[11].

وأمر بشكره، وهو: العملُ بطاعته، بفعل المأمور به، وترك المحظور[12].

وفي «صحيح مسلم»[13]: «**إنَّ الله ليَرْضَى عَلَى العَبْدِ إذَا أكَلَ الأكْلَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا**».

فمن أكل من الطَّيِّبات، ولم يشكر ربَّه، ولم يعمل صالحًا، كان معاقَبًا على ما فعله مِنْ تركِ الواجبات[14]، ولم تحلَّ له الطَّيِّبات؛ فإنَّ الله إنَّما أحلَّها لمن يستعينُ بها على طاعته، ولم يجعلْها لمن يستعينُ بها على معصيته.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة المائدة].

وقال إبراهيم الخليل: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ[15] مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [سورة البقرة].

ولهذا لا يجوز أن يُعانَ الإنسانُ بالمباحات على المعاصي، مثل مَن يُعطي الخبزَ واللَّحمَ لمن يشربُ عليه الخمرَ ويستعينُ به على الفواحش.

ومن حرَّم الطَّيِّباتِ الَّتي أحلَّ الله، من الطَّعام واللِّباس والنِّكاح وغير ذلك، واعتقد أنَّ تَرْكَ ذلك مطلقًا أفضلُ من فعله لمن يستعين به على طاعة الله، كان متعدِّيًا، مُعاقَبًا على تحريم ما أحلَّ اللهُ سبحانه وتعالى، قد عصى الله ورسولَه[16]، وعلى تعبُّده لله تعالى بالرَّهبانيَّة، ورغبته عن [سنَّة][17] رسول الله ﷺ، وعلى ما يُفرِّطُ فيه من الواجبات، فإنَّ من الواجبات ما لا يتمُّ إلاَّ بهذه المباحات[18]، وما لا يتمُّ الواجب إلاَّ به فهو واجب.

وكذلك من أسرف في بعض العبادات، كسَرْد الصَّوم، ومُداومة قيام اللَّيل كلِّه حتَّى يضعفَه ذلك عن بعض الواجبات كان مستحقًّا العقاب.

كما قال النَّبيُّ ﷺ لعبد الله بن عمرو: «**إنَّ لنَفْسكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَآتِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»[19].

فأصلُ الدِّين: فعلُ الواجبات، وتركُ المحرَّمات.

فما تقرَّب العبد إلى الله عزَّ وجلَّ بأفضل من أداء ما افترَض عليه، ولا يزال العبد يتقرَّب إلى الله بالنَّوافل حتَّى يحبَّه.

فالنَّوافلُ المستحبَّة الَّتي لا تمنعُ الواجباتِ هي ممَّا تُرفَع به الدَّرجات.

وتركُ فضول المباح، وهو ما لا يحتاج إليها لفعل واجب ولا مستحبٍّ، مع الإيثار بها، ممَّا يثيب الله فاعلَه عليه، ومن تركها لمجرَّد البخل لا للتَّقرُّب بها إلى الله تعالى بالزُّهد، فهنا لم يكن محمودًا.

ومن امتنع من نوع من الأنواع الَّتي أباحها الله على وجه التَّقرُّب بتركها، فهو مُخطئٌ ضالٌّ.

ومن تناول ما أباحه الله من الطَّعام واللِّباس، مُظهرًا لنعم الله عليه، مستعينًا به على طاعة الله، كان مُثابًا على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [سورة التكاثر]، [أي: عن شكر النَّعيم][20]، فيُطالَبُ العبدُ بأداء شكر الله على هذه النِّعم[21]، فإنَّ الله لا يعاقبُ على ما أباح، وإنَّما يعاقبُ على ترك مأمور وفعل محظور[22].

وهذه القواعد الجامعة تبيِّن المسائلَ المذكورةَ وغيرَها.

فمن ترك دخولَ الحمَّام لعدم حاجته إليه فقد أحسن.

ومن دخلها مع كشف عورته والنَّظر إلى عورات النَّاس، أو ظَلَم الحمَّاميَّ[23]، فهو عاصٍ مذموم.

ومن تنعَّم بها لغير حاجةٍ فهو منقوصٌ مَرْجوح.

ومن تركها مع الحاجة إليها، حتَّى يَكثر وسخُه وقُمَّلُه، فهو جاهلٌ مذموم[24].

(11) جملة «في دينه» ليست في «المجموع».
(12) في «المجموع»: المحذور.
(13) برقم (2734)، من حديث أنس رضي الله عنه.
(14) في «المجموع»: على ما تركه من الواجبات، وفي الأصل: «على ما فعله من فعل الواجبات»، والمُثبَت هو الأنسب الأصوب.
(15) في الأصل: «ربنا وارزق أهله...»، وهو خطأ في نقل الآية.
(16) جملة «قد عصى الله ورسوله» ليست في «المجموع».
(17) زيادة من «المجموع».
(18) جملة «فإنَّ من الواجبات ما لا يتمُّ إلاَّ بهذه المباحات» ليست في «المجموع».
(19) المتن المذكور هنا خاطب به سلمان أبا الدَّرداء رضي الله عنهما فقال النَّبيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»، كما أخرجه البخاري (1968)، أما حديث مخاطبته ﷺ لعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما فهو عند مسلم (1159) بلفظ قريب.
(20) زيادة من «المجموع».
(21) في «المجموع»: بأداء شكر نعمة الله على النَّعيم.
(22) في «المجموع»: محذور.
(23) الحمَّامي: «صاحبُ الحمَّام» «المُغرب» (227/1).
(24) من قوله «فمن ترك دخول الحمَّام» إلى هنا ليس في «المجموع»، وقد وردت هذه العبارة في جواب سؤال مستقلٍّ في «المجموع» (341/21).

وأمَّــا الحريــر، فهــو حــرام علــى الرِّجــال؛ إلاَّ في مواضــع مُستثناة[25]، فمن لبس ما حرَّمه الله ورسولُه فهم آثم.

وأمــا الكتّان والقطــن ونحوهما، فمن تركه مــع الحاجة إليه فهــو جاهلٌ ضالٌّ، ومــن أسرف منه[26] فهو مذمــوم، ومن تجمَّل بلبسه إظهارًا لنعمة الله [عليه، فهو مشكورٌ على ذلك، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله**][27] **إذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدِه نعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يُرَى أَثَرُ نِعْمَته عَلَيْه**»[28]، وقال: «**إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحبُّ الجَمَالَ**»[29].

ومن ترك لبسَ الرَّفيع من الثِّياب زهدًا في الدُّنيا[30] وتواضعًا لله ﷻ، لا بُخْــلاً، ولا التزامًــا للتَّرك مطلقًا، فــإنَّ الله يُثيبُه على ذلك، ويكسوه من حُلَل الكرامة.

وتُكــره الشُّهــرةُ مــن الثِّيــاب القصيــر الخــارج عــن العادة والطَّويــل[31]، فــإنَّ السَّلف كانوا يكرهون المرتفــع والمنخفض[32]، وفي الحديث: «**مَنْ لَبسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَــهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّة**»[33]، وخيار الأمور أوسطُها.

والفعــلُ الواحدُ في الظَّاهر يُثابُ الإنســان على فعله مع النِّيَّة الصَّالحة، ويُعاقَبُ على فعله مع النِّيَّة الفاسدة.

فمن حــجَّ ماشيًا لقوَّته على المشي وآثَــرَ بالنَّفقة كان مأجورًا أجريــن: [أجر المشــي وأجر الإيثار، ومن حــجَّ ماشيًا بُخْلاً بالمال إضرارًا بنفسه كان آثمًا إثمين: إثم البُخْل وإثم الإضرار][34].

ومــن حــجَّ راكبًا [لضَعْفه عــن المشي وللاستعانــة بذلك على راحتــه ليتقوَّى بذلك على العبــادة كان مأجورًا أجرين، ومن حجَّ راكبًا][35] وهو يَظلمُ الجمالَ والحَمَّالَ كان آثمًا إثمين.

وكذلك اللِّباس، فمن تــرك جميلَ الثِّياب بُخلاً بالمال لم يكن مأجورًا، ومن تركه متعدِّيًا[36] بتحريم المباحات كان آثمًا.

(25) منها: قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نهى نبي الله ﷺ عن لبس الحرير إلاَّ موضع أصبعين أو ثلاث أو أربع» أخرجه مسلم (2069).
(26) في «المجموع»: أسرف فيه.
(27) زيادة من «المجموع».
(28) أخرجه أحمد (6708) والتِّرمذي (2819)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.
(29) أخرجه مسلم (91)، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
(30) جملة «زهدًا في الدُّنيا» ليست في «المجموع».
(31) في المجموع: وتكره الشُّهرة من الثِّياب وهو المترفِّع الخارج عن العادة والمتخفِّض الخارج عن العادة.
(32) في «المجموع»: المترفِّع والمتخفِّض.
(33) أخرجه أحمد (5664) وأبو داود (4029)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(34) زيادة من «المجموع».
(35) زيادة من «المجموع».
(36) في «المجموع»: متعبِّدًا.

ومــن لبس جميلَ الثِّياب إظهارًا لنعم الله عليه واستعانةً على طاعــة الله كان مأجورًا، ومن لبسه فَخــرًا وخُيَلاءَ كان آثمًا، فإنَّ الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور.

ولهذا حرَّم الله إطالةَ الثَّوب بهذه النِّيَّة، كما في «الصَّحيحين» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ جَرَّ إزَارَهُ خُيَلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللهُ إلَيْه يَوْمَ القيَامَــة**» -بهــذه النِّيَّة-[37]، فقال أبــو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! إنَّ أحــد شقَّيْ إزاري[38] يسترخــي إلاَّ أنِّي أتعاهد ذلك منه، فقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ إنَّكَ لَسْتَ ممَّنْ يَفْعَلُهُ خُيَلاءَ**»[39].

وفي «الصَّحيحين»[40] عن النَّبيِّ ﷺ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إزَارَهُ خُيَلاءَ إذْ خَسَفَ اللهُ به الأَرْضَ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إلَى يَوْم القيَامَة**».

فهذه المسائل ونحوها: تتنوَّعُ بتنوُّع (نيَّات النَّاس ومقاصدهم، وتتنــوَّعُ أيضًا بتنوُّع أحوالهم وحاجاتهم، وتتنوَّعُ بتنوُّع)[41] علمهم واعتقادهم.

والعبــدُ مأمــور أن يقــول في صلاتــه: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ [سُورَةُ الفَاتِحَةِ].

(37) الجملة المعترضة ليست في «المجموع».
(38) في «المجموع»: إنَّ طرف إزاري.
(39) أخرجه البخاري (3665)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(40) البخاري (3485) ومسلم (2088)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(41) ما بين القوسين ليس في «المجموع».

فمــن تــرك جـمـيـلَ الـثِّـيـاب بُـخـلاً بـالـمـال لم يـكـن مــأجــورًا، ومــن تـركـه مـتـعـدِّيًـا بـتـحـريـم الـمـبـاحـات كـان آثـمًـا. ومــن لـبـس جـمـيـلَ الـثِّـيـاب إظـهـارًا لـنـعـم الله عـلـيـه واسـتـعـانـةً عـلـى طـاعـة الله كـان مــأجــورًا، ومــن لـبـسـه فَـخـرًا وخُـيَـلاءَ كـان آثـمًـا، فــإنَّ الله لا يـحـبُّ كـلَّ مـخـتـالٍ فـخـور



الإرهاب النحوي

أحمد معمر

□ ليسانس في علوم الشريعة . تيارت

إنَّ مـن الفواقـر المهلكـة، أن يَـرزَأَ ألسنَتَنا جُـدَرِيُّ اللَّحن، فتصبحَ مُشرقَات الفُصحى، تَطرُق مسامعنا كأنَّها طِلَّسمَاتٌ عويصـة المغـزى، ورمـوزًا سحيقـة الغَور مُظلمـة المعنى، نـرى في تحصيل قواعدها كـدًّا نكـدًا، ونزعم أنَّ فـنَّ نحوها لا يدرك أبـدًا، حتَّى دبَّ إلينا الخـَوَر، وتولَّى أكثرنا يهـذي بقولهـم: «النَّحـو صعـب»! و«النَّحو رياضيَّات العَربيَّة»!

وليعلـم القارئ الفطـن أنَّ النَّحو علمٌ عَلـق بـه مـا لأجلـه استكرَهَتـه النُّفوس، وشَابَـه مـا أَسبَـل علـى واضحـه سُـدُول الظُّلمَة، ورَعَى دَرسَه أو تَدريسَه من سَاقه مسَـاق الإبهام والنُّفـرة، فمَعقد بلائه إمَّا مـن مُدرِّس قَاصـر أو مُقصِّـر، أو كتاب عَسِـر مُنفِّر، فإن لم يكـن فالعيب في فتور همَّـة طالبه وتوانيه، أو جهلـه بسُبُل دَركه وتحرِّيه.

هل هناك أسباب تبعث على استصعاب علم النَّحو؟

لقـد تعالت شكاوى طـلَّاب النَّحو منَ النَّحـو، وأطلقوا زفـرات متنوِّعـة، تجهَر بالرَّهَـق بدعـوى كَثرة القواعـد النَّحوية، وصعوبـة العبـارة، مع تداخـل التَّعاريف، وتشابه الشُّروط والأركان،...

والَّذي يجـب أن لا يغيب عن مدركاتنا أنَّ النَّحـو كغيـره مـن العلـوم، لـه أصولٌ ومسائـلُ تستدعـي مـن طالبهـا جهـدًا معتـبرًا، لا يتجـاوز قدراتنـا العادية، وأنَّ كثرة هـذه الضَّوابط والقواعـد، لم تصل إلى حـدٍّ يَتعذَّر معـه تحصيلها، والإحاطة بعلمها، بل هي في حدود الوُسع الَّذي نُمَكَّن منـه، إذا أوفينا مَطلَبَنـا حقَّه من الجهد والمصابـرة علـى الطَّلب، ومـا نزعمـه من صعوبـة في النَّحو، لا يتجـاوز مرحلة البداية، وسيزول تدريجيًّا، ويتلاشى شيئًا بعد شيء، عنـد التزام السُّبـل النَّاجعة، لإدراك فصولـه وتحصيـل أبوابـه، وكما قال العلاَّمة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ النَّحو بابـه من حديـد ودهاليزه قصـب! يعني أنَّه شديد وصعب عنـد أوَّل الدُّخول فيه، ولكنَّه إذا انفتح الباب لطالبه، سهل عليه الباقي بكلِّ يسر، وصار سهلاً عليه...»[1].

وبعض المشايخ يقول: «إنَّك ترى النَّحو أسدًا! فإذا دخلته وجدته خروفًا!!».

ولو تأمَّل النَّاظـر في النَّحو عن كَثَب؛ لانكشفـت لـه الأستار، وألفـى أنَّ النَّحو. باختصار.:

قاعـدة في مُتنـاول الفَهـم، نحـاول أن نحفظَهـا ونُـدرك معنَاهـا، ثـمَّ نقوم بتطبيقهَا على عدد من الأمثلة، والنَّتيجة؛ تكـون قـد خطَوت خطـوة مهمَّـة في تعلم مبـادئ النَّحو، وإنَّما هـو خطوات آخرها أسهـلُ مـن أوَّلها، فـإذا تكـرَّر منك هذا العمـل، بثبـاتٍ في الفهـم وتواصـلٍ في المحاولات بدأت تتربَّى لديك. بتوفيق اللَّه. الملَكَة النَّحويَّة.

وهل النَّحو إلاَّ هذا ؟!

○ عبـرة للألمعـي مـن قصَّـة إمـامٍ نحويّ:

جـاء في «أخبار العلماء» لأبي الحسن القفطـي، أنَّ الإمـام يحيـى النَّحوي كان ملاَّحًـا يعـبر النَّـاس في سفينتـه، وكان يحـبُّ العلـم كثيرًا، فـإذا عـبر معه قوم

(1) «كتاب العلم» لابن عثيمين : (91).

مـن دار العلم والدَّرس الَّتي كانت بجزيرة الإسكندريَّـة، يتحاورون فيمـا مضى لهم مـن النَّظـر ويتفاوضونه، يسمعـه فتهشُّ نفسـه للعلم، فلمَّا قوي رأيه في طلب العلم فكَّر في نفسه وقال: «قد بلغت نيِّفًا وأربعين سنة ومـا ارتضت بشـيء! ولا عرفت غير صناعة الملاحة! فكيف يمكنني أن أتعرَّض لشيءٍ من العلوم؟».

وفيمـا هو يفكِّر إذ رأى نملة قد حملت نواة ثمرة وهـي دائبة تصعـد بِها فوقعت منهـا، فعـادت وأخذتها ولم تـزل تجاهد مرارًا حتَّى بلغت بالمجاهدة غرضها فقال:

«إذا كان هـذا الحيـوان الضَّعيف، قد بلغ غرضه بالمجاهدة والمناصبة فبالحريِّ أن أبلُغَ غرضي بالمجاهدة».

فخـرج مـن وقته وبـاع سفينتـه ولزم دار العلـم، وبـدأ يتعلَّـم النَّحـو واللُّغـة والمنطـق، فبرع في هذه الأمور، ووضع كتبًا كثيرة...»[2].

معالم منهجيَّة في طريق تعلُّم النَّحو

□ **الإخلاص أوَّلاً:**

مـن أَمَّ لغة القُرآن يريد نُحور حُورها، واقتنـاءَ درر بحورهـا، فليَعقِـد عَزمتَـه علـى تعبُّد الله بإحـراز نفائـس أصولها، وليسترضي ربَّه بالرِّباط مع حرَّاسها، فإنَّ الله لا يُؤخِّـر فضلـه وتوفيقه على من كان الإخلاص صديقَه، والتَّقـوى رفيقَه، وهو سبحانـه باسـطٌ فضلَه لمـن يسعى ليرعى لغة كتابه الكريم، وسنَّة نبيِّه العظيم ﷺ.

رُوي عـن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «إنَّمـا يحفـظ الرَّجـلُ علـى قـدر نيَّتِـه»، وقـال غيره: «إنَّما يُعطـى النَّاس على قدر نيَّاتهم»[3].

□ **أسلُوب التَّدرُّج:**

آفة المبتدئـين في النَّحو المللُ والسَّآمة؛ جرَّاء الشُّعـور بعدم التَّحصيـل، مع شدَّة الجهـد المبـذول، وهـذا مـردُّه إلى هجر أسلـوب التَّـدرُّج والمرحليَّة، فـإنَّ مجاوزة انتهاجه عنـد الكثير مـن الطَّلبة؛ هو من أسبـاب إعاقتهـم والحيلولـة بينهم وبين النَّحـو، ممَّـا قـذف في نفوسهـم كراهية مُزَاوَلتـه، وانقطـاع الأمـل في تحقيـق مباحثـه، وعليه كان لزامًـا في تعلُّم النَّحو التزام جـادَّة العلم، واصطحـاب الرِّفق، بالتَّدرُّج في سبيل التَّرقِّي شيئًا فشيئًا.

□ **كيف تتدرَّج في علم النَّحو؟**

ينبغـي للمبتـدئ في تفهُّـم النَّحـو أن يكون اهتمامـه الأكبر منصبًّا على معرفة المسائـل والأبـواب، وإحـكام تصوُّرهـا إجمـالاً، وحفظ أهمِّ القواعـد الواضحة، ولا يضـيرك عجـزك عن تفهُّـم بعض ما حفظتـه، أو تعرَّفـت عليه. كمرحلـة أوَّليَّة.. فتَبـدَأ تطـوف علـى مهمَّـات المسائـل والمصطلحـات، وتطالـع مثـلاً في كتـاب مختصـر: أقسـام الكلمـة، وعلامات كلِّ قسم، ثمَّ ماهيَّة الإعـراب والبناء، وأنواع الأفعال ودراسـة النَّواصب، والجوازم،.... كلُّ ذلـك علـى وجه الإجمـال. دون التفات إلى كثرة التَّفاصيل.. وبحسب ما تجود به قدرتك، في مُدَد لا تجلـب لك الملل[4]، ثمَّ بالطَّريقـة نفسها تمرُّ علـى جميع أبواب النَّحو وفصوله، حتَّى تختمها.

والمقصود من هذه المرحلة التَّمهيديَّة، هـو الإلمـام المجمـل بالنَّحـو، لإزاحـة الاستصعاب بعد مباشـرة مسائل النَّحو وقواعـده، وتهيئـة النَّفـس وإعدادهـا لفهـم أعمق، وتحصيـلٍ أوفر، في المرحلة المواليـة، الَّتـي ستُـدرك فيهـا سُهولـة المسائل، وتَتَـذَوَّق عمليًّـا سَلاستهَا، ممَّا يدفعـك إلى المواصلـة والاستمـرار، في مراحل قادمة . بإذن الله..

□ **ولسلوك التَّدرُّج لابدَّ من: حفظ متن مختصر:**

لأنَّ المتُـون النَّحويـة، تختصـر لـك مسائل النَّحو، في مبادئه وأصوله، وتقرِّب لك غامضه بعبارة وجيزة، ولفظ ميسور، كمـا توفِّـر عليـك الزَّمـن والجهـد، ومن فوائدها أنَّ الابتداء بحفظها ومدارستها، يهيِّـئ لـك الارتقـاء بفهمـك مـن ضبط القواعد الواضحة، والأصـول الكلِّيَّة، إلى إتقان المسائل والفروع التَّفصيليَّة الَّتي قد استقرَّت مآخذها في ذهنك.

ومـن مشهور أقـوال أهل العلم: «من حفظ المتـون حاز الفنون»، ويقولون: «من حرم الأصول حرم الوصول».

(2) «أخبار العلماء بأخيار الحكماء» أبو الحسن القفطي (153/1) بتصرُّف.

(3) «الأذكار» الإمام النَّووي (24).

(4) ومسألة الزَّمن هنا مهمَّة جدًّا للمبتدئ، وهي محلُّ مراعاة عند حذَّاق المعلِّمين، كما يروى أنَّ الكسائي لمَّا استخلف الأحمر. شيخ العربيَّة. على أولاد الرَّشيد قال له الأحمر: «لعلِّي لا أفي بما يحتاجون إليه!» فقال الكسائي: «إنَّما يحتاجون كلَّ يوم إلى مسألتين في النَّحو، وبيتين من معاني الشِّعر، وأحرف من اللُّغة، وأنا ألقِّنك كلَّ يوم قبل أن تأتيهم فتحفظه وتعلِّمهم»، فقال: «نعم». «بغية الوعاة» (158/2).

من المتون النَّحويَّة الَّتي نالت استحسانَ النُّحاة وحُلِّيَت بثناء العلماء الثِّقات «متن الآجرُّوميَّة»، ولا أدلَّ على ذلك، من تَوارد أهل العلم على نظمه وشرحه، وتهذيبه وتقريبه، تأصيلاً وتفصيلاً، حتىَّ صار كأجود ما يعكف عليه المبتدئون، وأدنى ما إليه يرجعون.

☐ ترشيد لمن تعذَّر عليه الحفظ؟

أسُّ الحفظ وعمودُه تكرارُ المحفُوظ، ومعاودة إمراره وترديده، تعقُّلاً بالقَلب، ونُطقًا باللِّسان، فإنَّ «ما تكرَّر على اللِّسان ترسَّخ في الجنان»، والنَّاس في ذلك على مراتب ودرجات، أمَّا من رَكَّ حفظُه دون تمام الإتقان، فليربط قلبه بالصَّبر على مداومة النَّظر فيها، وكثرة القراءة، وعليه أن يلاطف نفسه، وليخفِّف من مقدار محفُوظه، قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا أعلمُ شيئًا أنفَع للحفظ من نهمة الرَّجل، ومداومة النَّظر»[5].

وقال أبو اسحاق الشِّيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنت أعيد كلَّ درسٍ مائة مرَّة»[6].

☐ كيف تستفيد من شروح «متن الآجرُّوميَّة»؟

إذا كنت ممَّن لم يتيسَّر له شيخ متقن مأمون، يلقِّنك علم النَّحو، فاعمد إلى [الشَّرائط] السَّمعيَّة أو البصريَّة، واستعن بالله على الاستفادة منها، فإنَّ فيها ما تَفضُل به على الكتب. خاصَّةً للمبتدئ. فهي تُثير تفاعلك معها وتشعرُك بجوِّ الحضور بين يدي الشَّيخ، ممَّا يرفع مستوى فهمك، ويجذب تركيزَك، وهي تُتيح لك أن تُعيد سماع ما لم تستوعبه كتابةً أو فهمًا، ولك أن تكرِّرها بالقدر الَّذي تريد، ولا شكَّ أنَّ الأفضل هو الجمع بين المكتوب والمسموع، فإنَّ التَّنوُّع في سُبُل أخذ العلم واكتسابه وتناوله من مُختلف وسائل تقريبه ذَريعةٌ إلى بلوغ الفهم، وحُسن الاستيعاب، ومراجعة ما تمَّ تعلُّمه مع التَّعمُّق فيه أكثر، فالَّذي يتعذَّر عليك فهمُه أو حفظُه من المتن، أخذته من الشَّرح المكتُوب، والأخير إن تعسَّر عليك شيءٌ منه حفظًا أو فهمًا، استدركته من الشَّرح المسموع، وكما قيل: «ما تكرَّر تقرَّر».

☐ العناية بضبط الألقاب والمصطلحات النَّحويَّة:

تُعنى كتب النَّحو بالحدود والتَّعاريف النَّحوية، لكنَّ كثيرًا ما تُصاغ تلك التَّعاريف النَّحوية بألفاظ ومصطلحات، يستبهمها المبتدئ ولا يستسيغها ذهنُه!، مع أنَّ الأولى أن تُفكَّك جميع مفردات المصطلحات النَّحوية، وتوضَّح بلغة في متناول فهم المبتدئ، كما ينبغي أن يفصح عن سبب تواضع علماء النَّحو على ذلك المصطلح المعيَّن، ووجه الاتصال بينه وبين المعنى اللُّغوي، حتَّى يهون على المتعلِّم فهم تلك المصطلحات والألقاب النَّحوية وتعقُّلها؛ لأنَّه عندما يأخذ المبتدئ قاعدةً ما، وهو خبيرٌ بمعاني ألفاظها، فسترسخ في ذهنه أكثر عندما يفهم. زيادةً على تعريفها. لماذا سمِّي ذلك المصطلح كذلك، أو ما هي علَّة إطلاق ذلك اللَّقب عليه.

مثال ذلك إذا مرَّ عليه قولهم: «والفاعل ضمير مستتر تقديره هو»، أو قولهم: «مَنعَ من ظهوره اشتغال المحلِّ بحركة المناسبة».

فليراجع تفسير ما يقرِّبُ له معنى «ضمير»، ومعنى «مستَتِر»، ومعنى «تقديره»، أو معنى «حركة المناسبة»، ولماذا سمِّي المبتدأ مبتدأً؟ وما معنى المضاف؟ ولماذا نقول منع من ظهورها التَّعذُّر؟ وما الفرق بينه وبين الثِّقل؟

فلو تعلَّم المبتدئ في كلِّ خطوةٍ تسير به في طلب النَّحو معنى لمصطلح أو لقب في قاعدة ما، لأجدَاه ذلك جودةً في الاستيعاب، ومُتعةً في الطَّلب، وأفاده إدراك هذه المعاني ارتقاءً في سلَّم اكتساب ملكة تمكِّنه من الاستحوَاذ على مبادئ النَّحو، وتسعفه بالتَّعرُّف على الحكم الإعرابي لكلِّ كلمةٍ تستجدُّ عليه، من غير كبير عناء.



(5) «سير أعلام النُّبلاء» للإمام الذَّهبي: (12/406).
(6) «تهذيب الأسماء» للإمام النَّووي (1/738).

□ العناية بالأمثلة والشَّواهد وأثرها في ترسيخ القاعدة واستحضارها:

في علم النَّحو من القواعد ما تحتوي جملةً من المفردات، ومنها ما تتبعها شروط معيَّنة، وأخرى تلحقها بعض الاستثناءات، ممَّا يجعلها سهلة التَّفلُّت من ذهن الطَّالب! وهذا يعصمنا الله تعالى منه بحفظ أو كثرة التَّرداد لمتنٍ مختصر ـ كما سبق ـ، وشيء آخر هو: حفظ نُصُوص الشَّواهد والأمثلة والعناية بها، والاطِّلاع على الكثير منها، فإنَّ لحفظها وإدراكها جملةً من الفوائد منها:

ـ فهم القاعدة واستيعابها جيِّدًا.

ـ القدرة على تطبيق القاعدة.

ـ تثبيت القاعدة وتيسير استحضارها، مع استرجاع شروطها واستثناءاتها.

□ توضيح بتمثيل:

في الأسماء الخمسة ـ مثلاً ـ، القاعدة فيها أنَّها تُعرَب بالحروف نيابةً عن الحركات، تُرفع بالواو، وتُنصَب بالألف، وتُجرُّ بالياء، وهذه الأسماء محدودة بعدد، ولابدَّ أن تجتمع فيها شروط معيَّنة، فحتَّى تستوعب باب الأسماء الخمسة فهمًا وتطبيقًا لابدَّ أن تحفظها، وتحفظ شروطها، وتتفهَّم تطبيقاتها على الأمثلة، فكيف تختصر الطَّريق إلى تعلُّمها؟

في «متن الآجرُّوميَّة» تجد الأسماء الخمسة بالنَّصِّ الآتي: أَبُوكَ، وأَخوكَ، وحَمُوك، وفُوكَ، وذو مَال.

ـ أوَّلاً: لأنَّك قد كرَّرت أو حفظت المتن، فتعداد الأسماء الخمسة مستقرٌّ في ذاكرتك.

ـ ثانيًا: حفظك لهذه الأسماء بهذا السِّياق، يُوَفِّر عليك حفظ شروطها السِّتَّة؛ لأنَّ المؤلِّف قد ضمَّنها في سياقه للأسماء الخمسة بهذه الألفاظ[7]، فستجد هذه الأسماء قد ساقها المؤلِّف «مُكبَّرةً» فلم يقل: أُبَيُّك، أُخَيُّك،... وهذا شرطُها الأوَّل، وكلُّها كما تلاحظ «مفردة»، غير مُثنَّاة ولا مجموعة، وهذا شرطها الثَّاني، وكلّها «مضافة» وهذا شرطها الثَّالث، وكلُّها «مضافة إلى غير ياء المتكَلِّم»، وهذا شرطها الرَّابع، وتجد الاسم «فُوك» في لفظ المؤلِّف «خاليًا من الميم»، وهذا شرط خاصٌّ بهذا الاسم، كما يختصُّ اسم «ذُو» بشرطيَّة «أن يكون بمعنى صاحب»، كما مثّل المؤلِّف فقال: «ذو مالٍ»، فالشُّروط ستَّة: أربعة مشتركة، واثنين خاصَّين، ولا يعزُّ عليك حفظها واسترجاعها، وأنت قد حفظت لفظ المتن، وانتبهت إلى أنَّ لفظ المؤلِّف يشير إليها.

ـ ثالثًا: ستجد النُّحاة يمثِّلون لأحوال إعرابها كالآتي:

ـ مثال رفعها بالواو قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ [يُوسُف: 68].

ـ مثال نصبها بالألف قوله تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينًا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾ [سُورَةُ البَلَد].

ـ مثال جرِّها بالياء قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [سُورَةُ عَبَسَ].... إلى باقي الأمثلة.

فإذا حفظت لفظ المتن، واجتهدت في فهمه، والانتباه إلى الشُّروط المضمَّنة فيه، واستعنت على ترسيخ ذلك بأمثلة وافية لهذه الأسماء، في حال الرَّفع، والنَّصب، والجرِّ، كفاك لفظ مثال المؤلِّف الوجيز، استرجاع كلِّ الشُّروط دون عناء بإذن الله تعالى.

(7) أشار إلى هذا العلاَّمة ابن عثيمين: في شرحه الماتع على «متن الآجرُّوميَّة» (52).



□ **الأخذ بالأيسر في الخلاف:**

ممَّا يُريح ذهنَك، ويخفِّف كاهلك في مسلك تعلُّم النَّحو، أن تتحرَّى من مذاهب الخلاف في مسائله أسهلها، وأقربها إلى قريحتك، وأن لا تتعنَّى مع الصَّعب فيكدَّ فؤادُك، وتتعثَّر أفكارُك، فإذا اعترضك خلاف بين النُّحاة - كالكوفيِّين والبصريِّين مثلاً - أن لا تتردَّد في اختيار السَّهل منه، والمضيِّ قُدمًا إلى مسائل أخرى، حتَّى إذا ما آنست من نفسك نضجًا، وصلابةً في علمك، عدتَ - إن شئت - إلى كلِّ خلاف من أجل تحريره، واستبصار الصَّواب فيه.

والخُلفُ إن كَانَ فخُذ بالأَسهَل
في النَّحو لا في غيره في الأفضَل»[8]

□ **العناية بالضَّوابِط النَّحويَّة:**

تصادفك في كُتب النَّحو بعض الضَّوابط الشِّعرية والنَّثرية، الَّتي صاغها العلماء، إعانةً لعقل الطَّالب على إتقان المسائل النَّحويَّة، وتقريبًا له لما ندَّ عنه منها، فيجمعون بتلك الضَّوابط ما تشتَّت على الذِّهن، بلفظٍ سلسٍ يسيرٍ حفظُه، كما جمع النَّاظم العلل المانعة من الصَّرف في قوله:

اجمع وزِنْ عادلاً أنِّثْ بمعرفَةٍ
ركِّبْ وزِدْ عُجْمةً فالوَصْفُ قد كَمُلا

وقاعدة أنَّ «فاء السَّببيَّة» و«واو المعيَّة» ينصبَان الفعل المضارع، إذا وقعتا جوابًا لأحد أمور تسعة، جمعها النَّاظم في قوله:

مُرْ وانْهَ وَادْعُ وسَلْ واعْرِضْ لِحَضِّهِمُ
تمنَّ وارْجُ كذَاك النَّفي قَد كَمُلا

وغيرها من الضَّوابط المنظومة...

فَحَقيقٌ بك طالبًا لعلم النَّحو أن تغتنم مثل هذه الضَّوابط بالحفظ والرِّعاية، لتستعين بها على تقليص نصيب الحفظ، وضبط المسائل المتفرِّقة، مع سرعة استحضَارها وقتَ الحاجة إليها.

وإذا كان كذلك، فلا تغفل أيضًا عن حفظ الضَّوابط الَّتي تعينك أكثر، في التَّعرُّف على محلِّ الكلمة المشتَبَه حكم إعرابها مع غيرها، كما فعل النُّحاة في ضبط بعض «منصُوبَات الأسماء» بقولهم: المفعول من أجله يصحُّ أن يقع جواب «لماذا»، التَّمييز جواب «ماذا» غالبًا[9].

□ **التَّدرُّب والتَّمرُّن على التَّطبيقَات:**

إنَّنا نجازف كثيرًا عندما نكتفي بشذرات من قواعد النَّحو، دون تمرُّن على تطبيقها!! ثمَّ إذا استعصى علينا شيءٌ من الإعراب، رمينا بالتُّهمة سريعًا على النَّحو وتعسُّر مسائله!!

فإذا رُمتَ إتقَان النَّحو، واكتساب ملَكَة نحويَّة، من سبيل ميسُور مختصر، بريٌ من المشقَّة والتَّكلُّف، فعليك كلَّما خلصت من قاعدة نحويَّة - حصَّلت مسائلها، وجُلت في أمثالها وشواهدها - أن تَستَحثَّ نفسك على التَّدرُّب على تطبيقها، وتكثير التَّمارين عليها، ولا تقفز من قاعدة إلى أخرى، إلاَّ وقد قتلتها فهمًا وتطبيقًا، بكثرة التَّدريبات، ومباشرة التَّمارين، حتَّى تستسهل الإعراب وتتمكَّن من التَّعوُّد عليه.

واعلم أنَّك - وأنت تمارس الإعراب - ستصادف من الكلمات والجمَل، ما يُجَدِّد عَهدك بما حفظت ودَرست من القواعد، ممَّا يزيدها استقرارًا في ذهنك، ثمَّ إنَّ ممارستك للإعراب والتَّعوُّد عليه، يُذهب ما تَستوعره منه، ويرسِّخه في ملكتك، فإنَّ «كثرة المزاولات تعطي الملكات».

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمين.



(8) «شرح متن الآجرُّوميَّة» (150).

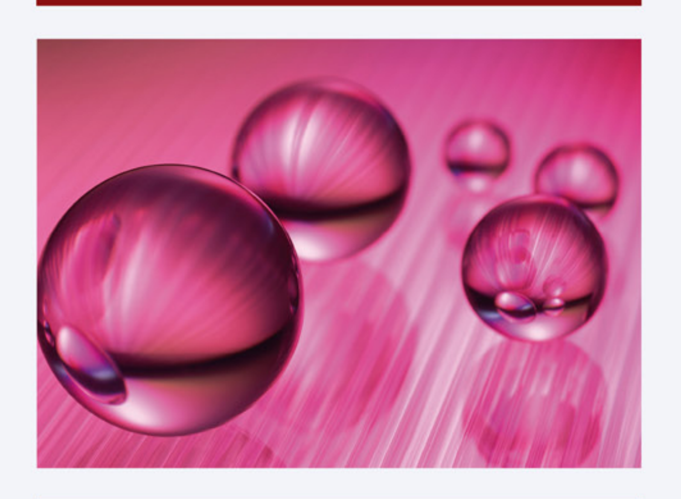
(9) مثل هذه الضَّوابط وأشباهها تجدها مبثوثةً مبسوطة في كتب النَّحو، وقد قام الشَّيخ عبد العزيز الحربي بجمع مائة قاعدة وضابط نحوي صدَّر بها كتابه: «الشَّرح الميسَّر على ألفيَّة ابن مالك» (13).

قضايا تربوية

الأطفال في بيت النبوة

. الجزء السَّادس .

فريد عزوق



عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يأخذه والحسنَ ويقول:

«اللَّهُمَّ إنِّي أُحِبُّهُمَا فَأَحِبَّهُمَا».

أخرجه البخاري (3747)

□ قولـه ﷺ: «اللَّهُـمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَـا»، أي لله تعالى، قال الملاَّ علي القاري رحمه الله: «فيه إشعار بأنَّ محبَّته لله ولذا رتَّب محبَّة الله على محبَّته وفي ذلك أعظم منقبةٍ لهما»[1]، وفيه بيان أنَّ على الأب الاهتمام بصلاح الأولاد، إذ لا يكفي أن يحبَّهم حبًّا فطريًّا، فهذا مركوز في فطر الآباء مؤمنهم وكافرهم، بل لابـدَّ له من السَّعي للحبِّ المطلوب شرعًا القائم على أساس الإيمان والاستقامة، وإلاَّ انقلب إلى عداوة وجب الحذر منها للحفاظ على التَّديُّن كما قال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: 14]، أي لا يحملكم حبُّكم الفطري لهـم على التَّهاون في الطَّاعـات، قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخبرًا عن الأزواج والأولاد: إنَّ منهم من هو عدوُّ الزَّوج والوالد، بمعنـى: أنَّه يلتهـى به عن العمـل الصَّالـح، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون]، ولهذا قال ههنا: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم»[2].

□ في قولـه ﷺ: «فَأَحِبَّهُمَـا» دليل على أنَّ محبَّة الله لعبده هـي الشَّأن كلُّه، وأنَّها غاية الغايـات، وأنَّ من صدق محبَّة الوالد لولده الدُّعاء له بالصَّلاح والفلاح والرِّضا والمحبَّة من الله تعالى، فمن لا يرضى عنه الله تعالى لا ينفعه حبُّ النَّاس له جميعًا، ومن لا يصلحه الله تعالى لا يقدر البشر على هدايته، ولو كانوا أنبياء، كما هو الشَّأن في نوح عليه السلام مع ابنه الكافر، ولهذا أُثر عن بعض السَّلف قولهم: «الصَّلاح من الله، والأدب من الآباء»[3].

ومـن ثـمَّ: فـإنَّ تربيـة الأولاد تبدأ بطلـب التَّوفيـق من الله واستمـداد العـون منه علـى إصلاحهـم والدُّعاء لهـم بالهداية والاستقامـة، قـال تعـالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾ [الأحقاف]، ولهـذا أرشدنا النَّبـيُّ ﷺ عنـد الرَّغبة في طلب الولـد أن نستمدَّ العون من الله تعـالى ونستعيـذ بـه سبحانه من كلِّ مـا يلحق الولد مـن الضَّرر والفسـاد، فقال ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُـمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ فَقَالَ بِاسْمِ الله اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَـا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»[4]، وهو مسلـك سار عليـه الأنبياء عليهم السلام، كما هو شـأن إبراهيم عليه السلام

(1) الملاَّ علي القاري «مرقاة المفاتيح» (3972/9).

(2) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم» (139/8).

(3) البخاري «الأدب المفرد» (46)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف الأدب المفرد» برقم (92/20).

(4) متَّفق عليه، البخاري برقم (7396)، ومسلم (1434).

أبـي الأنبياء؛ حيث دعا الله تعالى أن يجعـل ذرِّيَّته على التَّوحيد والصَّــلاح وأن يكونوا من مقيمي الصَّــلاة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ]، وقـال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ]، فبارك الله لـه في ذرِّيَّته وجعل منهم الأنبيـاء والرُّسل، كما بارك الله لامرأة عمران في مولودها بعـد أن دعت الله تعالى إعاذة بنتها وذرِّيَّتها مـن الشَّيطـان: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

فعلـى الوالد أن يهتـمَّ بشأن الدُّعـاء وطلـب التَّوفيق والعون والصَّلاح مـن الله تعالى، حتَّى يثمر تأديبـه لأولاده وتربيته لهم ولسـان حالـه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

□ في الحديث دليل على أنَّ العطف ليس خاصًّا بالطِّفل الرَّضيع، بل هو مستمرٌّ حتَّى في الكبر، ففي حملِ النَّبيِّ ﷺ للحسن رضي الله عنه وهـو صغير وأسامة رضي الله عنه وهو أكبر منه بسنوات، ما ينبِّه الآباء إلى ضـرورة الانتبـاه لهـذه القضيَّـة، حتَّى لا تنشب الغيرة بين الأبناء؛ لأنَّ اعتقاد بعض الوالدين أنَّ الطِّفل إذا تجاوز الخمس سنوات لم يعد بحاجة إلى عطف وحنانٍ هو خطأ تربويٌّ ينتج عنه غيرة سلبيَّة تنعكس آثارها على سلوك الأبناء.



□ في الدُّعـاء لهما جميعًـا رضي الله عنهما دليل على وجوب العدل بـين من هم تحت رعاية الوليِّ، حتَّى ولـو لم يكونوا إخوةً أشقَّاء، فالحسن هو حفيد النَّبيِّ ﷺ، وأمَّا أسامة فمولاه وابن مولاه، ومع ذلـك قَرَنَ بينهما في الاهتمام بصلاحهما والدُّعاء لهما بالمحبَّة، وهـذا فيـه تنبيهٌ إلى من تـولَّى رعاية أطفال مـع أولاده أن يسير بهم سيرًا عادلاً، ويتأكَّد وجـوب الرِّعاية العادلة إذا كانوا يتامى مكسـوري الجناح، فـإنَّ الحاجة إلى الإحسـان إليهم وإشعارهم بمنزلتهم وسط أفـراد الأسرة مطلوبة شرعًا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ [سُورَةُ الضُّحَىٰ]، أي: «لا تذلَّه وتنهره وتهنه، ولكن أحســن إليه، وتلطَّف به، قال قتادة: كن لليتيم كالأب الرَّحيم»[5]، واللَّقيط أو مجهول النَّسب مثل اليتيم في وجوب الرِّعاية والعدل، بـل هو أشدُّ منه في حاجته لمن يحوطه بالحبِّ والعناية والحماية، وهـو ما نصَّت عليه فتوى اللَّجنـة الدَّائمة بقولها: «[إنَّ] مجهولي النَّسـب في حكـم اليتيم لفقدهـم لوالديهم، بل هـم أشدُّ حاجةً للعنايـة والرِّعاية من معروفي النَّسـب لعدم معرفة قريب يلجأون إليـه عند الضَّرورة، وعلى ذلك فإنَّ من يكفل طفلاً من مجهولي النَّسـب فإنَّـه يدخل في الأجـر المترتِّب على كفالـة اليتيم لعموم قولـه ﷺ: «**أَنَـا وَكَافِلُ اليَتِـيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا**[6]»[7].

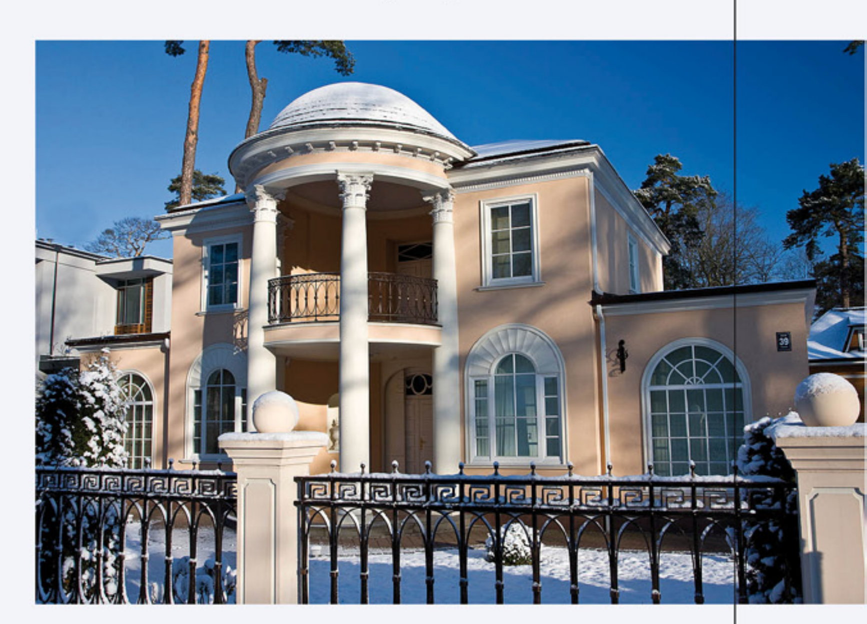
إنَّ إحاطـة اليتيـم أو اللَّقيـط أو مجهـول النَّســب بالرِّعاية والحنـان مثل ما يحاط به الأبناء لَدليلٌ على صدق الإخلاص لله تعـالى؛ لأنَّ الفطرة تميل إلى الولد من نسلـه، لكن رعاية اليتيم ليس وراءها مصلحة ذاتيَّة، بل هو محض الإيمان بالله والطَّمع في رضوانـه ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [سُورَةُ الإِنسَانِ]، يقـول الشَّيـخ عطيَّة سـالم رحمه الله مبيِّنًا هـذا المعنى: «إنَّ المؤمـن يخاف مـن الله يومًا عبوسًا، وعـبَّر بالعبوس في حقِّ يـوم القيامة، لئلاَّ يعبس هو في وجه اليتيـم والمسكين لضعفهما، ومـن جانب آخر، فإن كان التَّكذيب بيوم الدِّين[8]، يحمل على كلِّ

(5) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم» (8/427).
(6) البخاري في «صحيحه» (5304).
(7) «فتاوى اللَّجنة الدَّائمة للبحوث العلميَّة والإفتاء» برقم (20711).
(8) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [سُورَةُ المَاعُونِ].

الموبقات، إلاَّ أنَّها قد تجد ما يمنع منها، كالقتل والزِّنا والخمر لتعلُّق حقِّ الآخرين، وكذلك السَّرقة والنَّهب.

أمَّا إيذاء اليتيم وضياع المسكين، فليس هناك من يدفع عنه، ولا يمنع إيذاء هؤلاء عنهما، وليس لديهما الجزاء الَّذي ينتظره أولئك منهم على الإحسان إليهم، وجبلت النُّفوس على ألاَّ تبذل إلاَّ بعوض، ولا تكفَّ إلاَّ عن خوف، فالخوف مأمون من جانبي اليتيم والمسكين، والجزاء غير مأمول منهما، فلم يبق دافع للإحسان إليهما، ولا رادع عن الإساءة لهما إلاَّ الإيمان بيوم الدِّين والجزاء، فيحاسب الإنسان على مثقال الذَّرَّة من الخير»[9]، ولهذا أعظم النَّبيُّ ﷺ أجر كافل اليتيم ومَن في حكمه، كما سبق ذكره، بل أخبر عن المرأة الَّتي آثرت رعاية أيتامها على مصلحتها أنَّها تكون في الجنَّة معه، كما قال ﷺ: «**أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الخَدَّيْنِ[10] كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» وجمع بين أصبعيه السَّبَّابة والوسطى «**امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا[11] حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى أَيْتَامِهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا**»[12].

(9) عطية سالم في «أضواء البيان» (9/543ـ545).
(10) سفعاء الخدَّين: أي متغيِّرة لونها بسبب خدمة الأيتام.
(11) آمت من زوجها: أي فقدت زوجها، فهي أيم.
(12) أحمد في «المسند» (24006)، وقال محقِّق «المسند»: «حسن لغيره إن شاء الله»، وضعَّف إسناده الشَّيخ الألباني رحمه الله في «السِّلسلة الضَّعيفة» (1122).



إرشاد تربوي لرعاية الأيتام ومن في حكمهم من اللُّقطاء ومجهولي النَّسب

تبيَّن ممَّا سبق فضل رعاية الأيتام والعناية بتربيتهم وتنشئتهم، وأنَّ ذلك مبدأ إسلاميٌّ أصيل، وهنا ينبغي التَّنبيه على أمور منها:

ـ أنَّ الإسلام وجَّه إلى كفالة الأيتام ومن في حكمهم ضمن الأسر والعوائل، إذ وجود الطِّفل اليتيم في أسرة يُسهِّل من مهمَّة تعلُّم عادات المجتمع، ويُسهِّل رسوخ القيم والنُّموَّ اللُّغويَّ والنَّفسيّ، بخلاف وجوده في ملجأ للأيتام؛ التَّنشئة فيه تبنى على إطارٍ تنافسيٍّ قد لا يكون مهيَّئًا له في صغره لعوزه للعطف والحنان والأمن النَّفسي، والمؤسَّسات الَّتي ترعى اللُّقطاء والأيتام هي حلٌّ جزئيٌّ لا يحقِّق التَّنشئة المرجوَّة غالبًا؛ لأنَّ الطِّفل فيه نوع من الأنانيَّة يحتاج إلى عطف خاصٍّ وليس مشتركًا.

ـ تنشئة الطِّفل على الدِّين والخلق والاستقامة من الأهمِّيَّة بمكان، وهي تحتاج إلى كنف رحيم مثل الأبوين، أو من يقوم مقامهما في الحماية والعطف والعناية، لذلك قدَّم الشَّرع الخالة في الحضانة بعد الأمِّ، فهي بمنزلتها في الحنوِّ والاهتمام والرِّعاية.

لذا؛ على الجهات المسؤولة أن لا تمنح كفالة ورعاية اليتيم لأيٍّ كان، بل لابدَّ أن تراعي في الأسر النَّاحية الدِّينيَّة والخلقيَّة والمادِّيَّة، حتَّى ينشأ اليتيم ومن في حكمه نشأة سليمة.

فالطِّفل اليتيم ومن في حكمه إذا نشأ في ظلِّ أسرةٍ تعطف عليه وترعاه يشعره بالطُّمأنينة والأمان، وينظر للمجتمع نظرةً إيجابيَّةً، بخلاف لو تربَّى في ملجإ، فإنَّه قد يتولَّد لديه انتقام وحقد على النَّاس، خصوصًا إذا كان مجهول النَّسب، فإنَّ النَّظرة السَّيِّئة للغير تلاحقه، كلَّما رأى غيره يترفَّه في النَّعيم، ويحظى بأب رحيم.

ـ ولعلَّ ما يشجِّع الأسر على كفالة الأيتام ومن في حكمهم، خاصَّة إذا كانت قليلة ذات اليد، هو وجود أوقاف تخصِّصها

الدَّولـة، أو يتـبرَّع بها محسنــون، يقفونها علـى الأيتام ومَن في حكمهـم، بحيـث يمنح لكلِّ أسـرةٍ مبلغًـا معيَّنًـا لتغطية نفقات اليتيـم مـن ملبـس ومـأكل ودواء وتعليم وغيره، وهـذا ما كان معروفًا في تاريخنا الإسلامي، حيث وقفت أوقاف على الأيتام ومـن في حكمهـم، لتشجيـع الأسـر علـى كفالتهـم، وكان هذا معروفًـا في مغربنـا العربـي والأندلـس كذلـك، فصـار اليتيم يحظـى بالتَّنشئـة السَّليمة والتَّعليـم المناسب بمـا سُخِّر له من ريـع يسدُّ نفقاته، فلم يقتصر التَّعليم كما ذكر ابن عذارى على أبناء الخلفـاء والخاصَّة وأبناء الطَّبقة المتوسِّطة القادرين على إرسـال أولادهم إلى المدارس وتوفير حاجاتهـم التَّعليميَّة، بل كذلك نال الفقـراء والمعوزون واليتامى حظَّهـم من التَّعليم بما هيِّـئ لهم من مدارس وكتاتيب وقفت عليهم[13]، ولم تكن الأسر المغربيَّـة والأندلسيَّـة تدفع الأجور والرَّواتـب للمعلِّمين من أجل أبنائها فقـط، بل ربَّما تبرَّع بعض منها للتَّكفُّل باليتامى أو ذوي الإعاقـة ممَّن لا يجدون مـن يكفيهم أجـرة التَّعليم، فمن ذلك «أسـرة بنـي ذكـوان» الَّتي تكفَّلـت بمؤونة ورعايـة أبي عبد الله محمَّـد بـن سليمان بـن الحنَّـاط الرّعينـي الأعمـى القرطبي (ت437هـ)، قال ابن سعيـد: «وكان بنو ذكوان هم الَّذين كفوه مؤونـة الدَّهـر وفرغوه للاشتغـال بالعلـم، وكان الغالـب عليه المنطق حتَّى اتُّهم في دينه»[14].

إذا تولَّت الأسر كفالة اليتيم؛ فإنَّ البركة تحلُّ بها، فتشيع فيها الرَّحمة لقوله ﷺ: «**الرَّاحِمُـونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا أَهْلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ مَنْ وَصَلَهَا وَصَلَتْهُ وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَّتْهُ**»[15]، ويحفظ الله لها أولادها مستقبلاً لقولـه تعـالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النِّسَاء]، والمعنـى كمـا قال ابن كثـير رَحِمَهُ اللهُ: «أي: كما تحبُّ أن تعامـل ذرِّيَّتك من بعـدك، فعامل النَّاس في ذرِّيَّاتهـم»[16]، ويدلُّ لها أيضا ما جاء في قصة الخضر مع موسى عن اليتيمين الَّلذين حفـظ الله لهما مـا استودعه أبوهما لهما مـن الكنز باستخراج الخضـر له مـن الجدار، وقد ذكر الله سبـب ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 82].

- ومـن البركة كذلك في كفالة اليتيم ومَـن في حكمه: الشُّعور بسلامـة القلب وصفائه ولينه، يـدلُّ لذلك ما رواه أحمد عن أبي هريـرة رضي الله عنه أنَّ رجـلاً شـكا إلى رسول الله ﷺ قسـوةَ قلبه؛ فقال له: «**إِنْ أَرَدتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ؛ فَأَطْعِمِ المِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ اليَتِيمِ**»[17].

وإذا كان المجتمـع قويًّـا بتمسُّكـه بدينه وتماسكـه فيما بينه وتراحمـه، فإنَّ ضعفه وهوانه بضدِّ ذلك، ولهذا أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ السَّاعة لا تقوم إلاَّ والرُّوم أكثر النَّاس، أي أقوى النَّاس، وفسَّر الصَّحابـيُّ عمرو بـن العاص رضي الله عنه ذلك بخمسـة أمور، ومنها رعايـة اليتيـم، قال المستـورد القرشـي عند عمرو بـن العاص: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**» فقـال له عمرو: أَبصِر ما تقول؛ قال: أقـول ما سمعت من رسول الله ﷺ؛ قال: لئن قلت ذلك إنَّ فيهم لخصالاً أربعًا؛ إنَّهم لأحلم النَّـاس عند فتنـة، وأسرعهم إفاقةً بعد مصيبـة، وأوشكهم كرَّةً بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة وأمنعهم من ظلم الملوك»[18].

- الشُّعـور بوجـود لقيط أو مجهـول النَّسـب في البيت يجعل الإنسـان يفكِّـر في خطـر الزِّنا وما يتولَّـد عنه من آفـات وآثار يصعـب التَّحكُّـم فيهـا، ممَّـا يُضْعف شهـوة ارتـكاب الحرام واقـتراف الزِّنا، ويُشعـره بفضل الله عليه ونعمتـه إذ جعله من حـلال لا من حرام، ويشكره علـى نعمة الوالدين، وهذا من بين حكـم الله تعـالى في حمـل بعض النَّـاس لبعض لتعـرف النِّعمة وتتجنَّب السُّخطة.

(13) ابن عذارى «البيان المغرب» (2/245 ـ 242).

(14) ابن سعيد عبد الملك وآخرون، «المُغرب في حُلى المغرب» (1/121).

(15) أحمد في «المسند» (6394) وغيره، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (2/499).

(16) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم» (2/222)

(17) «المسند» (7576)، وحسَّنه لغيره الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (2/353) (854).

(18) مسلم في «صحيحه» (2898)

هل يكون المنتحر بطلا؟

عمر الحاج مسعود

إنَّنا في زمَن انقلبت فيه الموازين وانعكست فيه الحقائق، فوقع ما أخبر به رسولُ الله ﷺ الصَّادقُ المصدوقُ في قوله: «**إنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاس سِنُونَ خَدَّاعَةٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ**»[1]، وغيِّرت أسماء الأشياء تمويهًا وتلبيسًا، فأصبح المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، إلى درجة أنَّ المنتحِر تخلُّصًا من همِّه وظَلَف عيشه وشدَّة مؤنته، وانتقامًا من استبداد مسؤوليه وظلم حُكَّامه، صار بطلا مِغْوارا، بل شهيدًا عظيمًا.

فالرَّجل البطل في هذا الزَّمَن من يَشْهَر السِّلاح، ويخرج على الحاكم، ويحرِّض الرَّعاع الهَمَج، ويُقحِمُهم في الفتنة والهرْج، ويزُجُّ بهم إلى الهلاك والموت، والرَّجل الزَّعيم هو الَّذي ينتحر ويضحِّي بنفسه تعبيرًا عن رفضه للظُّلم وفساد الأنظمة، وتوبيخًا للظَّالمين والانتهازيِّين، كما حدث في تونس هذه الأيَّام، ثمَّ في بلدان أخرى، يقلِّد بعضُهم بعضًا، وهذه سنَّة سيِّئة ومسلك رديٌّ.

قال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[2]، وقال: «**مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**»[3]، وقال: «**كَانَ بِرَجُلٍ جِرَاحٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقَالَ اللهُ: بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**»[4].

هذا جزاء المنتحر الظَّالم نفسَه، الَّذي يظنُّ أنَّه قد وضع حدًّا للهمِّ والمعاناة، لكن الحقيقةُ الَّتي لا مِريةَ فيها أنَّه انتقل إلى همٍّ أفظعَ ومعاناة أشنعَ، وكما حَرَم نفسَه في هذه الدُّنيا من العبادة والحياة والحرِّيَّة، يُحْرَم يوم القيامة من الجنَّة ويُدْخَل النَّار، وبئس القرار.

إنَّ الانتحار ـ مهما كانت أسبابُه وتعدَّدت دوافعُه ـ كبيرةٌ نَكْراء وجريمةٌ شَنْعاء، لا تحقِّق النَّصر والسَّراء، بل تسبِّب الهزيمةَ والبلاء؛ لأنَّه قتل للنَّفس بغير حقٍّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151].

وهو دليلٌ على فساد التَّديُّن والبعد عن عقيدة التَّوحيد والاعتراض على قدَر الله وحُكمه، وآيةٌ على اليأس والقُنوط والجُبن وفَقْد الصَّبر وصِغَر النَّفس وضَعف العزيمة، وعلامةٌ على الخيبة والانهزام والإخفاق، ولهذا يفشو ويتزايد في البلدان الكافرة[5]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر].

وهو برهانٌ على خَبْل العقل وفساد التَّفكير، ولا يصدر إلاَّ من الهَباء الَّذين لا عقل لهم، والنَّاس إذا طاشت عقولُهم وقعوا في القتل والفوضى والاضطراب، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: حدَّثنا رسول الله ﷺ: «**إنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لَهَرْجًا**»؛ قال: قلت:

(1) حديث حسن، أخرجه أحمد (7912)، وابن ماجه (4036)، انظر: «الصَّحيحة» (1887).

(2) رواه البخاري (6047)، ومسلم (110).

(3) رواه البخاري (5778)، ومسلم (109).

(4) رواه البخاري (1364)، ومسلم (113)، واللَّفظ للبخاري.

(5) جاء في جريدة «الشَّرق الأوسط» بتاريخ: 1419/10/21: 12 ألف منتحر سنويًّا في فرنسا.

يا رسول الله ما الهرج؟ قال: «**القَتْلُ... يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ وابنَ عَمِّه وَذَا قَرَابَته**»؛ فقال بعض القوم: يا رسول الله ومعنا عقولنا ذلك اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لاَ، تُنْزَعُ عُقُولُ أَكْثَرِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ لاَ عُقُولَ لَهُمْ**»[6].

إنَّ هذا الفعل المشين لا يليق بالعقلاء الرِّجال والشُّجعان الأبطال من أهل الإيمان، فهم يُوطِّنون أنفسهم على تحمُّل المشاقِّ في سبيل الله تعالى، ويصبرون ويحتسبون الأجر على ربِّهم، ولا يحملُهم ظلمُ الحكَّام وفسادُ الأمراء على الخروج عليهم ومخالفة شرع الله وتعدِّي حدوده، وإنَّما يلومون أنفسهم ويتوبون من ذنوبهم لاعتقادهم أنَّهم كما يكونوا يولَّى عليهم، و«الله تعالى ما سلَّطهم علينا إلاَّ لفساد أعمالنا، والجزاءُ من جنس العمل، فعلينا الاجتهادُ في الاستغفار والتَّوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: 165]... فإذا أراد الرَّعيَّة أن يتخلَّصوا من ظلم الأمير الظَّالم فليتركوا الظُّلم»[7]، فينبغي الحذرُ من الذُّنوب؛ لأنَّها سببُ العقاب والفتنة والهرْج والسِّنين وشدَّة المؤنة وجَوْر السُّلطان، قال الحسن البصري رحمه الله: «إنَّ الحجَّاج عقوبة من الله عزَّ وجلَّ لم تَكُ، فلا تستقبلوا عقوبةَ الله بالسَّيف، ولكن استقبلوها بتوبة وتضرُّع واستكانة، وتوبوا تُكْفَوْه»[8].

هذا هو فقه سلفنا الصَّالح في مثل هذه المسائل، ولو علم المنتحر هذا الأصلَ العظيم وفقهَ هذا التَّوجيهَ السَّليم لما أقدم على ذلك الفعلِ الشَّنيع، ولاتَّبع سبيلَ أولئك المؤمنين العقلاء، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إنَّ الرَّجل العاقل البطل في نظر الشَّرع الحنيف ليس هو المتهوِّر العنيف الَّذي يستشرف للفتنة ويخوض مع الخائضين، وإنَّما هو الَّذي يوحِّد ربَّه ويَصْدُقه ويطيعه ويَفي بعهده ويثبُت على دينه، ويجتنب معصيته ويحذر يوم لقائه، ويقهر نفسه وينتصر على هواه، ويتمسَّك بغَرز العلماء الرَّبَّانيِّين. وخاصَّة في أيَّام الفتنة. ليدلُّوه على سبيل النَّجاة وطريق السَّلامة، ولا يتَّبع كلَّ ناعق ولا يميل مع كلِّ ريح، ويبذُل نفسَه وماله نصرةً لدين الله وإعلاءً لكلمته، ويكون عنده سدادُ الرَّأي ورَجاحة العقل وحسن الخلق وشرَف النَّفس، وعنايةٌ بمعالي الأمور وابتعادٌ عن سَفْسَافها، ويكون مفتاحا للخير مغلاقا للشَّرِّ.

قال الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النور]. وقال النَّبيُّ ﷺ: «**والمُجاهدُ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَة الله**»[9]، وقال: «**لَيْسَ الشَّديدُ بالصُّرَعَة إنَّما الشَّديدُ الَّذي يَمْلكُ نَفْسَهُ عنْدَ الغَضَب**»[10]، فالَّذي يملك نفسه وينتصر عليها في حالة الغضب. فضلاً عن حالة الرِّضا. أحقُّ بالشِّدَّة والقوَّة وأهلُها.

أنشد بعضهم[11]:

ليس الشُّجاعُ الَّذي يحمي كتيبته
يوم النِّزال ونارُ الحرب تشتعل
لكن فتى غضَّ طَرْفا أو ثنى بصَرا
عن الحرام فذاك الفارسُ البطل

فما أحوج أمَّتنا إلى أمثال هؤلاء الرِّجال العقلاء، الَّذين هم مناط الإصلاح ومعْوَل النَّصر، الَّذين يعيدون لها مجدَها المسلوب وعزَّها المفقود، والله المستعان وعليه التُّكلان.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران].

وصلِّ اللَّهمَّ وسلِّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى جميع الآل والأصحاب، وعلى التَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الحساب.

---

(6) أخرجه أحمد (19492)، وابن ماجه (3959)، واللَّفظ له، وصحَّحه الألباني، انظر: «الصَّحيحة» (1682).
(7) «شرح العقيدة الطَّحاويَّة» لابن أبي العزِّ (2/ 543).
(8) رواه ابن أبي الدُّنيا في «كتاب العقوبات» (52).
(9) حديث صحيح، أخرجه أحمد (23958)، انظر: «الصَّحيحة» للألباني (549).
(10) أخرجه البخاري (6114)، ومسلم (2609).
(11) انظر: «كشف المشكل» لابن الجوزي (3/336).





واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

طريقة التّغيير والإصلاح

● قال الشَّيخ العلَّامة ابن باديس رحمه الله:

«فإنَّنا اختَرنا الخطَّة الدِّينيَّة على غيرِها عن علمٍ وبصيرةٍ، وتمسُّكًا بما هُو مناسبٌ لفطرتِنا وتربيتِنا من النُّصح والإرشاد، وبثِّ الخيرِ والثَّبات على وجهٍ واحدٍ والسَّير على خطٍّ مستَقيم، وما كنَّا لنَجد هَذا كلَّه إلَّا فيما تفرَّغنا له مِن خِدمة العِلم والدِّين، في خِدمتِهما أعظَم خدمةٍ وأنفعَها للإنسانيَّة عامَّةً.

ولو أردنا أن ندخُل الميدانَ السِّياسي لدخَلناه جهرًا ولضَربنا فيه المثَلَ الأعلى بما عُرِفَ عنَّا من ثباتِنا وتضحيتِنا، ولقُدْنا الأمَّة كلَّها للمُطالبة بحقوقِها، ولكانَ أسهلَ شيءٍ علينا أن نسيرَ بها على وَفْق ما نرسُمُه لها، وأن نبلُغَ من أنفسِنا إلى أقصَى غايات التَّأثير عليها، فإنَّ ممَّا نعلمُه ـ ولا يخفَى على غيرنا ـ أنَّ القائدَ الَّذي يقولُ لها: «إنَّكِ مظلُومَةٌ في حقُوقِكِ، وإنِّي أُريد أن أُوصِلَكِ إليها، يجدُ منها مَا لا يجدُه مَن يقولُ لها: إنَّك ضَالَّةٌ عن أصولِ دينِكِ، وإنَّني أُريدُ هدايتَكِ»، فذاكَ تُلبِّيه كلُّها، وهذا يُقاوِمُه معظَمُها أو شَطرُها، هذا كلُّه نعلمُه، ولكنَّنا اختَرنا ما اختَرنا لما ذكرْنَا، فإنَّا فيما اختَرناه بإذنِ الله لماضُون، وعليه متَوكِّلون».

● «الصِّراط السَّوي» عدد رمضان ـ 1352هـ ـ ديسمبر 1933، «الآثار» (286/5)

نصيحة غالية

● قال الإمام عبدُ الله بن المبارَك رحمه الله:

«اطْلُبُوا العِلْمَ وَأَفْشُوهُ فِي مَعَادِنه؛ فَإِنَّكُمْ بِالعِلْم تَعْرِفُونَ النِّعْمَةَ، وَبِالمعْرِفَة تَشْكُرُونَهَا، وَبِالشُّكْرِ تَسْتَوْجِبُونَ المزِيدَ فِيهَا، وَلْيَكُنِ العَقْدَ مِنْ بَالِكمْ عَلَى أَنْ تُغْلِقُوا أَبْوَابَ الشَّهْوَةِ بِأَقْفَالِ الزَّهَادَةِ، وَابْذُلُوا الصَّدَاقَةَ وَالمودَّةَ، فَإِنَّ الصَّدَاقَةَ مُسْتَغْزَرَةٌ بَعِيدَةٌ، وَإِنَّ العَدَاوَةَ مَوْجُودَةٌ عَنِيدَةٌ.

● «أخبار الشُّيوخ وأخلاقهم» للمروذي (365)

درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

- كلَّما كان النَّاس إلى الشَّيء أحوج، كان الرَّبُّ به أجود.

[«النبوات» (2/ 684)]

- فالسَّعادة هو أن يكونَ العلمُ المطلوبُ هُو العِلم بالله وما يُقرِّب إليـه، ويُعلـم أنَّ السَّعادة في أن يكونَ اللهُ هـو المحبوبَ المرادُ المقصود، ولا يُحتَجَبُ بالعلم عن المعلوم.

[«النبوات» (1/409)]

- الحاجـة إلى الهُدَى أعظمُ من الحاجَة إلى النَّصر والرِّزق؛ بلْ لا نِسْبَةَ بَيْنَهُما.

[«مجموع الفتاوى» (14/39)]

- إنَّ التَّوحيـد، هـو سـرُّ القُرآن ولـبُّ الإيمان، وتنويـعُ العبارة بوجـوهِ الدِّلالاتِ من أهـمِّ الأمُور وأنفَعِها للعبـاد في مصالحِ المعاشِ والمعادِ.

[«مجموع الفتاوى» (1/368)]

- إنَّ الإنسـانَ لا يـزالُ يطلبُ العلمَ والإيمانَ، فـإذا تَبيَّن له منَ العلـم ما كانَ خافيًـا عليه اتَّبعَه وليسَ هـذا مُذبذبًا؛ بل هَذا مهتدٍ زادَهُ اللهُ هدًى.

[«مجموع الفتاوى» (22/253)]

- كلَّمـا قويتْ محبَّـة العَبد لـمـولاه، صغُرت عنـده المحبُوبات وقلَّت، وكلَّما ضعُفَت، كثُرت محبوباتُه وانتَشرت».

[«مجموع الفتاوى» (1/94)]

- الجهـل والظُّلـم متقاربـان لَكن الجاهـل لا يـدْري أنَّه ظَالمٌ، والظَّالم جَهل الحقيقَةَ المانعَةَ لَهُ من العلم.

[«مجموع الفتاوى» (10/544)]

خطر الشِّيعة الرَّوافض

- قال رحمه الله:

«وَدَعْ مَا يُسْمَعُ وَيُنْقَلُ عَمَّنْ خَلا، فَلْيَنْظُرْ كُلُّ عَاقلٍ فيمَا يَحْدُثُ في زَمَانـه، وَمَا يَقْـرُبُ منْ زَمَانه منَ الفتَنِ وَالشُّـرُورِ وَالفَسَاد في الإِسْلَام، فَإِنَّـهُ يَجدُ مُعْظَمَ ذَلكَ منْ قبَلِ الرَّافضَة، وَتَجدُهُمْ منْ أَعْظَمِ النَّاسِ فتَنًا وَشَرًّا، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْعُدُونَ عَمَّا يُمْكنُهُمْ منَ الفتَنِ وَالشَّرِّ وَإِيقَاعِ الفَسَادِ بَيْنَ الأُمَّة.

فَهَـذَا أَمْرٌ مَشْهُـودٌ منْ مُعَاوَنَتهمْ للْكُفَّارِ عَلَـى المُسْلمينَ، وَمنَ اخْتيَارِهـمْ لظُهُـورِ الكُفْرِ وَأَهْله عَلَى الإِسْلَام وَأَهْلـه، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ المُسْلمينَ ظَلَمَةٌ فَسَقَةٌ، وَمُظْهِرُونَ لأَنْوَاعٍ منَ البدَعِ الَّتي هيَ أَعْظَمُ مـنْ سَبِّ عَليٍّ وَعُثْمَانَ، لَكَانَ العَاقـلُ يَنْظُرُ في خَيْرِ الخَيْرَيْنِ وَشَرِّ الشَّرَّيْنِ.

أَلَا تَـرَى أَنَّ أَهْـلَ السُّنَّـة؛ وَإِنْ كَانُـوا يَقُولُـونَ في الخَـوَارِجِ وَالرَّوَافضِ وَغَيْرِهمَـا منْ أَهْلِ البدَعِ مَا يَقُولُـونَ، لَكنْ لَا يُعَاوِنُونَ الكُفَّـارَ عَلَى دينهـمْ، وَلَا يَخْتَارُونَ ظُهُورَ الكُفْـرِ وَأَهْله عَلَى ظُهُورِ بدْعَة دُونَ ذَلكَ؟

وَالرَّافضَةُ إِذَا تَمَكَّنُوا لَا يَتَّقُونَ».

[«منهاج السُّنَّة» (6/372ـ375)]

- وقال أيضًا رحمه الله:

«وكذلكَ إذَا صَار اليَهود دولةً بالعراق وغيره، تكون الرَّافضة من أعظم أعوانهم؛ فهُم دائمًا يُوالون الكفَّار منَ المشركينَ واليَهود والنَّصارى، ويعاونُونَهم على قتالِ المُسلمين ومُعاداتهم».

[«منهاج السُّنَّة» (3/378)]



وصلتنا رسالة حَوَت مقالة جميلة من أخ حبيب اسمه عبد الواحد القرعاوي ـ حفظه الله ـ من بلدية حاسي الغلَّة من مدينة عين تيموشنت، فأحببنا أن نشرك إخواننا القرَّاء في قراءتها:

كلمة من القلب

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه والتَّابعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، وبعد:

فقد اغرورقت عيناي، وأخذتني أشجانٌ، وحاقت بي أحزانٌ، وأنا أطالعُ بريدَ القرَّاء من مجلَّتكم الغرَّاء، حرسها اللهُ وأفاض عليكم من النَّعماء.

وما ذلك لعيب وجدتُه، ولا لخطإ ألفيتُه، ولا لخلل عهدتُه...، ولكن ساءني أن لم أجد فيمن راسلَكُم ولا آزرَكُم ولا ناصرَكُم أحدٌ من أهل بلدتي، ولا من جيراني من ولايتي، حتَّى كأنَّها من أهل السُّنَّة خالية، وعن السَّلفيِّين عارية، ومن أنصارهم خاوية، فقلتُ: لا عيش هنأ، ولا بال هدأ، حتَّى أكتبَ كتابًا، وأخطَّ خطابًا أخبر به مَن نأى عنَّا ومَن دنا، بأنَّ (في كلِّ وادٍ بني ساعدة)، وأنَّ لكم في أقصى البلاد إخوانًا، وفي كلِّ مصرٍ من الأمصار أعوانًا...

في الله أحبُّوكم، وفيه تولَّوكم، وله نصروكم.

منكم بفَضل الله تعلَّمنا، وبفضله ثمَّ فضلكم على نهج الهدى سرنا، وطريقَ السَّلف أخذنا وآثارَ من سبقَ اقتفَينا.

أنرتُم لنا الطَّريق، وكنتم لنا نِعم الصَّديق، ورافقناكم فنِعم الرَّفيق، فأنتم لنا كما قيل:

يقينًا ما نخاف وإن ظننَّا ... به خيرًا أراناه يقينا

نميلُ على جوانبه كأنَّا ... إذا ملنا نميل على أبينا

نقلِّبه لنخبر حالتيه ... فنخبر منهما كرمًا ولينا

فلا والله؛ لا نقولُ لكم كما قالت بنو إسرائيل لموسى، ولكن نقولُ لكم كما قال أنصارُ الحقِّ لنبيٍّ جاء بالحقِّ من عند الإله الحقِّ.

هذا وإن لم نُساهم معكم بمقالات، فقد ساهمنا بدعوات وعبرات، وإن لم تخبروا منَّا تعليمًا وعلمًا، خبرتُم تعظيمًا وتبجيلاً، وإن جفَّت أقلامُنا لجهلنا، سالت مُهَجُنا وقلوبُنا شوقًا لكم، ومحبَّةً فيكم.

سلوا نسمات الرِّيح كم قد تحمَّلت ... محبَّة صبٍّ شوقُه ليس يُكتَم

وشاهد هذا أنَّها في هبوبها ... تكاد تبثُّ الوجد لو نتكلَّم

وإن سبقتمونا على جياد مُضَمَّرة وخيل مُسوَّمة، فنحن على إثركُم، وإن كنَّا على حُمُر دَبِرة، تسوؤنا مرَّة، وتسرُّ أخرى، فقد وضعتمونا على الطَّريق، وهديتمونا السَّبيل، فانتظرونا في آخره، فالموعد الحوض، فالموعد العوض إن شاءَ الله.

وختامًا: فقد أردتُ بهذه الكلمات تكثير سواد أهل الحقِّ المبين، وإغاظة أهل الضَّلال المشين، ورَفْع راية السُّنَّة، وكسر راية البدعة، وأن نُفرح أصحابَنا ونسوءَ أعداءَنا، وألاَّ يطوى ديوانُ السُّنَّة وأهلِها إلاَّ وقد كُتبنا فيه، ولو في ذيله ـ وأنعِمْ به من ذيل ـ، فتابعٌ في الحقِّ خيرٌ من رأسٍ في الباطل.

وسلامي من هذا المنبر إلى كلِّ أهل السُّنَّة أينَما كانوا، وحيثما حلُّوا ما انتَصر الحقُّ على الباطل، وعلا التَّوحيد على الشِّرك أبدًا.

فيا محسنًا بلِّغ سلامي وقُل لهم ... محبُّكمو يدعو لكم ويسلم

لكلِّ امرئ منهم سلامٌ يخصُّه ... يبلِّغه الأدنى إليه وينعَمُ

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

ردود قصيرة

- ممَّـن تواصـل معنا عن طريـق البريد الإلكـتروني أخٌ فاضل يُدعـى يوسـف الصّيـدوي ـ وفَّقـه اللّه ـ أبـدى سـرورًا كبيرًا بالمجلَّة وأثنى عليها خيرًا، وممَّا قال:

هذه كلماتي فيكم من شاعر مبتدئ في الصِّناعة قليل البضاعة:

إليكم أيُّها الحفل سلامي .. وشكـرا من بواعثه ودادي

فإنَّ الحقَّ لم يعدم رجالا .. تفانوا في النَّصيحة للعباد

لقد طارت حروفي مع الأثير .. فأتبَعها خيـال مـن فؤادي

فلـه منَّا جزيل الشُّكر على حسن ظنِّه بإخوانه، ونسأل اللّه أن يشملنا بعفوه ومغفرته.

- كما نتوجَّه بالشُّكر إلى الأستاذ علي سلمان ـ وفَّقه اللّه ـ خرِّيج جامعـة قسنطينـة للعلـوم الإسلاميَّة، وهـو أستـاذ بالتَّعليم الثَّانوي على قصيدة داليَّة مـن (15) بيتًا، عنوانها كالتَّالي: «شرارة أسف» ردًّا على مهرجان الفنِّ الإسلامي ـ زعموا ـ، ومطلعها:

بسم الكتاب أباحـوهـا بلا سند

وأوردوها دعـاوى الزُّور واللُّدد

وأفصحوا جهرةً من دون ما خجل

للـه قـومـتـنـا للدِّيـن للبـلـد

بل أوغلوا في مهاوي التِّيه حتَّى رأوا

قبح الوسائل قد تدعو إلى الرَّشد

إلى آخر ما قال، فنسأل اللّه له السَّداد وحسن التَّوفيق.

- ولـلأخ المفضـال الدُّكتور أحمد زقلام ـ جـزاه اللّه خيرًا ـ من خميـس الخشنة بمدينة بومرداس، جزيل الشُّكر والثَّناء على مقاله: «أوقات النَّهي والكراهة في صلاة النَّافلة عند المالكيَّة».

- الأخ المكرَّم مسعود سمارة ـ وفقه اللّه ـ من منطقة بابور بمدينة سطيـف، وهو مهندس دولة في الجغرافيا والتَّهيئة العمرانيَّة، نعتزُّ كثيرًا بعباراتك الَّتي فاضت بمشاعر الحبِّ والودِّ للمجلَّة والقائمـين عليهـا وجميع أقـلام الإصـلاح ومشايخه، ونحن بدورنـا نقـدِّم لك أجمل الشُّكـر وأحسنه، وإنَّـا في انتظار ما وعدت به من بحوث نافعة، واللّه المسدِّد.

- وأمَّـا الأخ عبد الرَّحمن سقَّال ـ سدَّده اللّه ـ من المرسى الكبير بمدينة وهران؛ فنشكرك كثيرًا على مقالك المعنون: «لا يعذِّب بالنَّـار إلاَّ ربُّ النَّـار» ممَّا ينبئُ علـى اهتمامك وانشغالك بمـا ينفع النَّاس، فنسأل اللّه أن يسدِّد خطاك ويفتح علينا وعليك بالعلم النَّافع.

- ونشكـر الأخ العزيـز يونـس عبد المالك ـ حفظـه اللّه ـ من مدينـة الشّلف، علـى اقتراحه علينـا الكتابـة في موضوع أخلاقيَّات الطَّبيب المسلـم ودوره في ترسيخ عقيدة التَّوكُّل علـى اللّه في نفوس المرضى، وإنَّنا نشاركـه الرَّأي، ونسأل اللّه أن يقيِّض قلمًا يُجريه صاحبه في هذا الموضوع.

- كمـا نتألَّم كثيرًا لِما تألَّم لـه الأخ الكريم الَّذي رمز لاسمه بـ (ف . س) من انتشـار سبِّ اللّه وسبِّ الدِّين على ألسنة كثـير من الجهَّال الحمقـى كبارًا وصغـارًا، وهذه المعرَّة لا يرفعهـا إلَّا نشر العلم بين النَّاس وكثرة التَّنبيه في الخطب والدُّروس ومجامـع العامَّة، وتوزيـع الرَّسائـل والأشرطة وغيرها من وسائل العلم؛ واللّه من وراء القصد.

- ويسعدنـا كثـيرًا أن نشكر أخانا الحبيـب عبد الكريم ابن عبد القادر بوغنجة ـ رعاه اللّه ـ من مدينة تيسمسيلت على رسالته المطوَّلة الَّتي حمَّلها كثيرًا من معاني الحبِّ والوفاء للدَّعوة السَّلفية المباركة وحَمَلَتها، فجزاه اللّه خيرًا.

- بـارك اللّه في الأخ صدِّيق الطَّاهـر ـ وفَّقه اللّه ـ على كتابته الَّتـي بعث بها إلينا بعنوان: «تنبيـه الأخيار على مخالفات يقع فيها التُّجَّار»، ونسأل اللّه أن يزيده من فضله.

- كما نشكر جزيلاً الأخوين الكريمين رابح قاسمي، وسامي عجَّال ـ وفَّقهما اللّه ـ على تواصلهما معنا.



تنبيه حول بيت: إذا الشَّعب يومًا أراد الحياة...

إنَّ من الأمور الَّتي لا ينبغي للمُسلم أن يغفل عنها هُو اعتناؤه بحفظ لسانه وصونه، والحرصُ على ألَّا يكتب عليه الملك الموكَّل به كلاما لا يليق التَّلفُّظ به، وخاصَّة إذا كان يتعلَّق بمسائل الإيمان والتَّوحيد، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ق].

وإنَّ ممَّا كثر سماعُه وترديدُه هذه الأيَّام عبر وسائل الإعلام المختلفة بيتا من الشِّعر للشَّاعر التُّونسي أبي القاسم الشَّابي يقول فيه:

إذا الشَّعب يومًا أراد الحياة فلابدَّ أن يستجيبَ القدر

ففي هذا البيت:

التَّصريح بأنَّ إرادة الشَّعب لا تتخلَّف، ولابدَّ أن تقع، وأنَّ القدر تابع ومستجيبٌ لها.

وهذا غلطٌ فاحش وقول شنيع؛ يضادُّ عقيدة الإيمان بالقدر، لأنَّ الله جلَّ ذكره لا يُوجب عليه أحدٌ من خلقه شيئًا، فالعبادُ والشُّعوب وحياتهم من جملة مخلوقاته، وجميع ما خلق الله تعالى يسير وَفق قضائه وقدره، وكلُّ ما يريده العباد ويشاؤونه تابعٌ لإرادته تعالى ومشيئته، فما شاء اللهُ كان وما لم يشَأ لم يكُن، ولا مانعَ لما أعطى، ولا معطيَ لما منع، ولا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه، قال ﷺ: «**إنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لاَ مُكْرِهَ لَهُ**»[1].

فما من شيء في هذا الوجود إلاَّ ويقع بعلم الله وقدره، والقدر على أربع مراتب: علم الله تعالى السَّابق، ثمَّ كتابته له، ثمَّ مشيئته له، ثمَّ خلقه له، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة الحج]، وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة التكوير]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة القمر]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [سورة الفرقان]، وقال رسول الله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة**»[2].

فنقول: كذب الشَّاعر فيما قال وبئسَ ما قال؛ إذ أنَّ فحوى البيت ومعناه كفر وضلال، وعلى المسلم أن لا ينساق وراء هذه الكلمات الرَّنَّانة والعبارات المزخرفة، فقديما قيل: «إنَّ أعذَبَ الشِّعر أكذبُه»، وعليه أن يتحرَّى الجادَّة والصَّواب في كلِّ ما يقول وينشر، وأن لا يروِّج مثل هذا البيتِ، وأن ينبِّه على ما فيه من خدش كبير لعقيدة الإيمان بالقَدر، وما أحسنَ قولَ الإمام الشَّافعي رحمه الله:

ما شئتَ كانَ وإن لم أشأْ وما شئتُ إن لم تشأْ لم يكُن

خلقتَ العبادَ على ما علمتَ ففي العلم يجري الفتَى والمُسِن

على ذا مننْتَ وهذا خذَلتَ وهذا أعنتَ وذا لم تُعِن

فمنهُم شقيٌّ ومنهُم سعيد ومنهُم قبيحٌ ومنهُم حَسَن[3]

والله المستعان، وهو الهادي إلى سواء السَّبيل.

---

(1) متَّفق عليه.

(2) رواه مسلم (2653).

(3) «شرح أصول الاعتقاد» للالَّلكائي (1304).